حياة أحمد بن حنبل

١٦٤ — ٢٤١ هـ

٩ — مولده ونسبه : ولد أحمد رضى الله عنه ، فى المشهور المعروف ، فى ربيع الأول من سنة ١٦٤ من الهجرة النبوية ؛ وقد ذكر ذلك ابنه صالح ، وحكاه ابنه عبد الله ، فقد قال : سمعت أبى يقول ولدت فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة . ولم يختلف الرواة فى زمن ولادته ، كما اختلفوا فى ولادة أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهما ، ذلك بأنه قد ذكر هو تاريخ هذه الولادة ، وكان على علم به ، ولم يترك الأمر لظن الرواة ، وتخرص المؤرخين ، فكان بيانه فى ذلك قاطعا ، ومانعا للشك أو الظن .

وإذا كانت ولادته قد علم تاريخها من غير ظن أو مجال للشك ، فقد علم أيضا تاريخ وفاته من غير ما شك ، فقد تطابقت الأخبار على أنه توفى لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكانت جنازته يوم الجمعة ، وأخرجت بعد منصرف الناس من إقامة صلاة الجمعة . ولا غرابة فى أن يعرف تاريخ وفاته بالتعيين ؛ فقد كان يوما مشهودا فى تاريخ بغداد ، تجاوبت بذكره الأقطار الاسلامية ، لكثرة الذين شيعوا جنازته ، فقد أحصوا فكانت عدتهم لا تقل عن ثمانمائة ألف ، ولأنه عند ما مات كانت شهرته قد تجاوزت آفاق العراق إلى كل البقاع الاسلامية ، فكانت وفاته حدثا كبيرا تعرفه الجماعات ، وتتناوله الأخبار من غير ظن ولا ريب .

١٠ — وقد ولد أحمد ببغداد ، وقد جاءت أمه حاملا به من مرو التى كان بها أبوه ، وقيل أنها ولدته بمرو ، ولكن الصحيح أنه ولد ببغداد ، وحملت به فى مرو وقد نقل عنه ذلك ، فلم يعد ثمة مجال للخرص . ونسبه عربى ، فهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه ، أبوه شيبانى ، وأمه كذلك ، فلم يكن أعجميا ولا هجينا ، بل كان عربيا خالصا ،

وشيبان قبيلة ربعية عدنانية ، تلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم فى نزار بن معد ابن عدنان ، وفى هذه القبيلة همة وإباء ، وحمية ، كان منها المثنى بن حارثة الذى تولى قيادة الجيوش الاسلامية عند مهاجمة العراق فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو الذى حسن لخليفة رسول الله ذلك ، وتولى بهمته أولى الحملات ، فشهد له الصديق فى ذلك بأحسن البلاء . ولقد اشتهرت شيبان بالهمة والصبر ، وحسن البلاء ، فى الجاهلية والاسلامية ، حتى كانت أبرز القبائل الربعية وفخرها ، ولقد قيل : « إذا كنت فى ربيعة فكاثر بشيبان ، وفاخر بشيبان ، وحارب بشيبان » [١] ، فشيبان فى الجاهلية والاسلام أكثر القبائل الربعية عددا ، وأعزها نفرا ، وأعظمها مآثر .

وشيبان كانت منازلها بالبصرة وباديتها ، وقد كانت فى الجاهلية قريبة المقام من العراق . فلما بنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه البصرة مظلة على الصحراء لينزل بها العرب ، يستنشقون فيها هواء الصحراء ، ولا يستوخمون بهواء الريف — نزلت شيبان بتلك المدينة الحضرية الصحراوية فسكنوها ، وسكنوا فى باديتها .

وكانت أسرة أحمد ، وأسرة أمه ، تنزل بتلك المدينة ، وبيدائها ، إذ كان جدها عبد الملك بن سواده بن هند من وجوه بنى شيبان ، ينزل عليه قبائل العرب ، فيضيفهم .

ولأن أسرته أصلها من البصرة عرف بأنه بصرى [٢] ، ويروى أن أحمد رضى الله عنه كان إذا جاء البصرة صلى فى مسجد مازن ، وهم من بنى شيبان ، فقيل له فى ذلك ، فقال إنه مسجد آبائى .

١١ — كانت أسرة أحمد من شيبان ، وأصل مقامها بالبصرة كما رأيت ، والان نريد أن نذكر أباه وجده بكلمات موجزة ، فأبوه محمد بن حنبل ، وجده حنبل بن هلال ، ومع أن مقام الأسرة بالبصرة كما نقلنا ، وكما تبين من سياق سيرة أحمد ، فإن أسرة أحمد لم يستمر مقامها بها ، بل إن جده قد انتقل إلى خراسان ، وكان واليا على

---

(١) تاريخ بغداد ص ٤ ص ٤١٥

(٢) المناقب لابن الجوزى ص ٢١

سرخس فى العهد الأموى ، ولما لاحت فى الأفق الدعوة العباسية عاون دعاتها ، وانضم إلى صفوفهم ، حتى أوذى فى هذا السبيل ، وقد قال الخطيب البغدادى فى ذلك : « جده حنبل بن هلال ، ولى سرخس ، وكان من أبناء الدعوة ، فسمعت اسحاق بن يونس صاحب ابن المبارك يقول : ضرب حنبل بن هلال ، وأبا النجم اسحاق بن عيسى السعدى ـ المسيب ابن زهير الضبي ، فى دسهم إلى الجند فى الشغب ، وحلقهما » (١) .

وأبوه محمد كان جنديا ، وقد وصفه ابن الجوزى عن الأصمعى ، بأنه كان قائدا ، فقد قال عن أبى بكر الاعين « سمعت الاصمعى يقول : أبو عبد الله أحمد ابن حنبل من ذهل ، وكان أبوه قائدا » (٢) وذهل هو جد شيبان الذهلى ، وقد قال ابن الجزرى : « كان أبوه فى زى الغزاة » (٣) .

وسواء أكان قائدا كما ذكر فى المناقب لابن الجوزى ، أم كان فى زى الغزاة كما ذكر ابن الجزرى ، فقد كان جنديا ، كشأن العرب فى ذلك العصر ، لا يكونون زراعيين ولا صناعا ، بل يكونون حماة وغزاة ، وكان جده قد بلغ مبلغ الولاة ، فكان واليا على سرخس ، حتى صار من أبناء الدعوة العباسية ، وأوذى فى ذلك .

ويظهر إن أسرته كانت بعد انتقالها إلى بغداد تعمل للخلافة العباسية ، ولم ينقطع اتصالها بها ، وإن لم يكن منها ولاة ، فإنه يروى أن عم احمد كان يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ليعلم بها الخليفة إذا كان غائبا عنها ، وكان أحمد يتورع عن المشاركة فى ذلك منذ صباه ، حتى أنه يروى أن بعض الولاة قال : أبطأت على أخبار بغداد ، فوجهت إلى عم أحمد ابن حنبل : لم تصل الينا الأخبار اليوم ، وكنت أريد أن أحررها واوصلها الى الخليفة فقال قد بعثت بها مع أحمد ابن أخى ثم أحضر أحمد ، وهو غلام ، فقال : أليس قد بعثت معك الأخبار ، قال : نعم . قال فلأى

---

(١) تاريخ بغداد حـ ٤ ص ٤١٥

(٢) المناقب ص ١٤

(٣) المصعد لابن الجزرى

شيء لم توصلها ؟ قال : أنا كنت أرفع تلك الأخبار ! ! رميت بها فى الماء ، فجعل الوالى يسترجع ، ويقول : « هذا غلام يتورع ، فكيف نحن [١] ! »

فهذه القصة تدل على أن أسرة أحمد لم تنقطع صلتها بالخلافة والولاة ، ولم يكن أحمد يستحسن ذلك ، تورعا وابتعادا عن الريب منذ صباه .

١٢ — ولد أحمد الورع التقى من هذين الأبوين العربيين الكريمين ، فهذه أمه قد كان أبوها من وجوه بنى شيبان ، جوادا كريما قد فتح بابه للعرب ، تنزل عليه القبائل فيضيفها ، وهذا جده ندب محتسب قوى يتولى الولاية ، ثم يرى دعوة يحسبها الحق ، فيناصرها ، وينزل به فى سبيل هذه المناصرة الأذى الشديد ، فيصبر صبر الكرام ، وهذا أبوه جندى يحمى الحمى ، ويدافع عن الحوزة وما خلع زى الغزاة ، بل كان على ذلك إلى أن مات .

من هذين الأبوين الكريمين كان أحمد ، وفى عروقه جرى ذلك الدم الأبى الكريم ، وورث عن أسرته عزة النفس وقوة العزم ، والصبر واحتمال المكاره ، والإيمان الراسخ القوى ، وكان ذلك كله ينمو كلما شدا وترعرع ، ويتبين فى سجاياه ، كلما عركته الحوادث ، وأصابته نيران الفتن .

١٣ — ولقد هيأ الله لهذه السجايا الموروثة أن تنمو ، وأن تقوى ؛ إذ أمدها بالجو النفسى الذى تتنفس فيه ، وتتغذى من طيب هوائه ، وصقلها بالتجارب التى جلت الصدأ الذى يعرض للنفوس بسبب سيطرة البيئات ، ثم هداها إلى النزوع الفكرى والنفسى الذى يوائمها ، ولا يناهضها .

وذلك أنه لم يكد يرى نور الوجود ، حتى رأى ابن يريد فيه ، قد فقد أباه ، وكلأته أمه ، فإن أباه قد مات وهو طفل ، ويذكر أنه لم ير أباه ولا جده ، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته ، وإذا كان قد مات بعد ولادته ، فلابد أن ذلك كان وهو صغير لا يعى ولا يدرك شيئا ، بدليل أنه نفى رؤيته لأبيه وجده ، وذكروا أنه مات شابا فى الثلاثين

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢٢

من عمره . ولقد قامت أمه على تربيته فى ظل الباقى من أسرة أبيه ، ولم يتركه أباه كلا يطلب المعونة ، بل ترك له ببغداد عقارا يسكنه ، وآخر يغل له غلة قليلة وهى تعطيه الكفاف من العيش ، ولم تعطه رافغ العيش ولينه وبسط الرزق ، ويساره ، فاجتمع له بتلك الغلة الضئيلة أسباب الاستغناء عما فى أيدى الناس .

١٤ — اجتمع لأحمد بهذا النسب ، وبهذه الحال التى آل إليه أمره ، وهو صبى فى المهد ، وبما كان له من نزوع نفسى من بعد خمسة أمور لم تجتمع لشخص إلا سارت به إلى العلا ، والسمو النفسى ، والبعد عن سفساف الأمور ، والاتجاه إلى معاليها ، تلك الأمور هى : شرف النسب والحسب ، واليتم الذى ينشئه منذ فجر الصبا معتمدا على نفسه وتدبيره وبلائه ، وحال من الفقر غير المقدع لا تستخذى به النفس ، فلا يبطرها النعيم ، ولا تصاب بطراوة الترف ، ولا تذلها المتربة ، ولا تلقى المتربة أنفها فى الرغام ، ومع هذه الخصال قناعة ونزوع إلى العلا الفكرى بتقوى الله سبحانه وتعالى ، وعدم الشعور بقوة لسواه ، والتقى كل هذا بعقل ذكىّ ، وفكر ألمعى .

وكان فى هذا كشيخه الشافعى ، نسب رفيع ، ويتم ، وحال من الفقر الذى يجد فيه الكفاف ، ولا يستخذى بالحاجة ، وهمة عالية ، ونفس أبية ، وعقل ذكى أريب ولقد تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ تشابها غريبا ، فكلاهما كان بهذه الأحوال التى ذكرناها ، وكلاهما كانت له أم ترأمه وتدفعه إلى العلا ، وتكنف مواهبه لتزكو وتنمو ولا تجعلها تنطفىء أو تخبو .

١٥ — وإن ما قلناه هنالك فى تأثير هذه الأحوال فى نفس الشافعى وتربيته نقوله هنا ، ولقد قلنا هنالك إن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشىء ينشأ على خلق قويم ، ومسلك كريم ، إن انتفت الموانع ، ولم يكن ثمة شذوذ ، ذلك بأن علو النسب يجعل الناشىء منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالى الأمور ، ويتجافى عن سفسافها ، ويترفع عن الدنايا ، فلا يصيب الفقر نفسه بذل ، ولا يتطامن عن ضعة ، ولا يرضى بالدنية ، ويسعى إلى المجد بهمة وجلد ، ليرفع خسيسة الفقر ،

ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح ، والاحساس بشرف النسب ، يجعله يحس باحساس الناس ، ويندمج فى أوساطهم ، ويتعرف خبيئة نفوسهم ، ودخائل مجتمعهم ، ويشعر بشعورهم ، وذلك ضرورى لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع ، وما يتصل به فى معاملاته ، وتنظيم أحواله ، وتوثيق علائقه ، وإن تفسير الشريعة ، واستخراج حقائقها ، والكشف عن موازينها ومقاييسها ، يتقاضى الباحث ذلك. يروى أن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة كان يذهب إلى الصباغين ، ويسأل عن معاملاتهم ، وما يجرى بينهم ، وما كان يفعل ذلك إلا ليكون حكمه فى مسألة تتعلق بشئون الناس ، وتتصل بعاداتهم أقرب إلى تلك العادات ، مالم تخالف أصلا من أصول الشرع وأحكامه ، فهذه النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع يتهيأ بها تهذيب كامل ، لا يتسامى عن العامة ، فيبعد عنهم ، ولا يهوى إلى مباذلهم فيصغر ، فكان لنسبه علوه ، ولفقره طيبته [١].

١٦ — ولقد كان لنسبه وفقره غير المدفع أثرهما ، عند ما ألقيت الدنيا بين يديه ، فألقاها بعيداً عن مواضع أقدامه ، ونحاها عنه بنفس نزهة ، وقلب تقى ، كان يهدى إليه المتوكل بدر الأموال ، فيردها فى تواضع كريم ، وكان متطامن النفس محساً باحساس الناس ، ما نزل إلى مباذل الناس ، وما تسامى عليهم بنسبه الرفيع ، حتى لم يلاحظ عليه قط فخر بنسبه العربى ، ولقد قال كتاب سيرته إنه مارئى الفقير عزيزاً فى مجلس ، كما كان فى مجلس أحمد رضى الله عنه ، وهذه الخصال الكريمة قد نبعت من ذلك النبع الكريم الذى امتزج فيه شرف النسب بقناعة الفقر ، وبسمو الروح ، وفضل التقى .

١٧ — تربيته : نشأ الإمام أحمد رضى الله عنه ببغداد ، وتربى بها تربيته الأولى ، وقد كانت تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم ، وتخالفت مآربهم ، وزخرت بأنواع المعارف والفنون ، فيها القراء والمحدثون ، والمتصوفة ، وعلماء اللغة ، والفلاسفة الحكماء ، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامى ، وقد توافر فيها ماتوافر فى حواضر

(١) كتاب الشافعى ص ١٨ .

العالم، من تنوع المسالك، وتعدد السبل، وتنازع المشارب، ومختلف العلوم؛ وقد اختارت أسرة أحمد له منذ صباه أن يكون رجل الدين الذى يتوافر له، يعكف عليه، ويتخذ له كل العلوم الممهدة له من علم باللغة، والحديث، والقرآن، ومآثر الصحابة والتابعين وأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته، وسيرة أوليائه الأقربين الذين اختصوا بطول الصحبة، وفقه الدين، ولب اليقين، وقد اتفقت هذه التربية، أو هذا التوجيه، مع نزوعه النفسى، وما كانت تصبو إليه همته من غايات، لقد وجهته أسرته إلى القرآن الكريم منذ نشأته الأولى، فاستحفظه، وظهرت عليه الأمارات مع الأمانة والتقى، فكان الغلام التقى بين الغلمان، كما صار من بعد الشاب التقى، ثم الكهل الذى الذى أبلى البلاء الأكبر فى الإسلام، واحتمل المكاره فى سبيل ما يعتقد، أو ما يراه نهجا فيما ليس له به علم.

حتى إذا أتم حفظ القرآن، وعلم اللغة، اتجه إلى الديوان ليمرن على التحرير والكتابة، ولقد قال فى ذلك: «كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم اختلفت إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة».

وكان وهو صبى محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء، حتى إنه ليروى أن الرشيد، وهو بالرقة مع جنده، كان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم، فلا يجد النساء اللاتى يعرفن أحمد غيره يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود، ولا يكتب ما يراه منكراً من القول.

ولقد كان نجبه واستقامته أثرين ملاحظين لكل أترابه، وآبائهم، يتخذه الآباء قدوة لأبنائهم، حتى لقد قال بعض الآباء: «أنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين، على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم!! انظروا كيف، وجعل يعجب من أدبه، وحسن طريقته[1]».

١٨ — إذا كان الطفل الصغير، هو سر الرجل الكبير، والنواة الصغيرة فى مطويها الشجرة الكبيرة، فكذلك كان ذلك الغلام اليتيم أحمد بن محمد بن حنبل، الذى

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢١

كان يمتنع عن كتابة مايوجب الورع ألا يكتبه ، ويمتنع عن إرسال كتاب لعمه يرى أن الصلاح لايوجبه ، أو ليس رضا الله فيه خالصا ، بل رضا السلطان هو المقصود الأول ، كما رأيت فى امتناعه عن توصيل كتاب عمه إلى الوالى ، لتوصيل الأخبار إلى الخليفة ، فكان ذلك الغلام هو الذى يطوى فى نفسه سجايا ذلك الأمام .

اشتهر الغلام أحمد بين الأقران بالتقوى والعناية بعمله ، والصبر والجد ، واحتمال ما يكره ، فلم يكن الغلام الذى تستغرقه ميعة الصبا ، ورعونة الصبيان ، بل كان الرجل الكامل ، وإن كانت السن سن الصبيان ، ولعل ذلك من فرط اعتماده على نفسه صغيراً ، وإحساسه بالاستقلال النفسى منذ طفولته ، ولقد استرعت هذه الصفات نظر العلماء الذين اتصل بهم فى ذلك العقد ، حتى لقد قال فيه الهيثم بن جميل : « ان عاش هذا الفتى ، فسيكون حجة على أهل زمانه »[1] .

ويظهر أن هذه النبوءة قد تحققت ، فقد عاش الفتى ، حتى اكتملت رجولته ، ووصل إلى السابعة والسبعين ، وكان نورا لأهل زمانه ، بعلمه ، وخلقه وورعه ، وصبره وقوة احتماله ، واستهانته بالأذى فى سبيل ما يعتقد .

١٩ — شب أحمد عن الطوق وكان يتجه إلى العلم ، وجهته أسرته إليه ، واستقام ذلك التوجيه مع نزوعه الخاص ، وبذلك تلاقت ميوله مع الوجهة التى وجه اليها ، وكانت بغداد فيها علوم الدين ، واللغة ، والرياضة ، والفلسفة ، والتصوف ، وكل هذه الأشجار قطوفها دانية ، فكان لابد أن يقتطف أحمد منها ، وإن الذى يتفق مع النشأة الأولى هى علوم الدين لا ريب فى ذلك ، وما تمهد إليه ، لذلك علم علوم اللغة باعتبارها طريق علوم الدين ، كما كان الشأن فى ذلك العصر ، وكما هو المعقول فى ذاته .

وإذا كان بين يديه أن يختار من علوم الشريعة ، فهو إما أن يختار مسلك الفقهاء ، وإما أن يختار أن يكون راويا من رواة الحديث ، وحافظا من حفاظه ، فقد ابتدأت الطريقتان تتميزان فى عصره ، وابتدأ العلمان ينفصلان ، علم الفقه ، واستخراج الفتاوى ، والأقضية ، وعلم الرواية ، وتمييز الرواة ، وإعداد المادة للفقهاء لتكون بين

---

(١) تاريخ الحافظ الذهبى فى ترجمة أحمد بن حنبل .

أيديهم كالمادة الطبية بين الأطباء ، يعدها لهم الصيادلة ، كما قال الأعمش المحدث لأبي حنيفة الفقيه ، ولقد كان فى العراق المنزعان ، وعن أيهما ينزع أحمد بقوسه ، وكلا الموردين صافى المنهل عذب .

كان فى بغداد فقه العراق ، وقد دونه أبو يوسف ومحمد ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وغيرهم ، وكان فى بغداد المحدثون والحفاظ .

٢٠ — ولقد اختار أحمد فى صدر حياته رجال الحديث ، ومسلكهم ، فاتجه إليهم أول اتجاهه ، ويظهر أنه قبل أن يتجه إلى المحدثين راد طريق الفقهاء الذين جمعوا بين الرأى والحديث ، فيروى أن أول تلقيه كان على القاضى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة ، ولكنه مال من بعد إلى المحدثين الذين انصرفوا بجملتهم للحديث ، فقد قال : « أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف »[1] .

ولكنه لم يدم فى الأخذ عنه ، وانصرف كما قلنا إلى المحدثين ، ومع أننا نقرر أنه انصرف إلى الحديث ، لا نقول إنه انصرف انصرافا قطعه عن الاطلاع على ما أنتجته عقول الفقهاء العراقيين من فتاوى وأقضية وتخريج ، بل إنه قد اطلع عليها ، ولكن لم تكن همته إليها ، ولم تكن بغيته نحوها ؛ وإن كان الاطلاع عليها أمرا له ثمراته فى علم الدين ، فلقد جاء فى تاريخ الحافظ الذهبى : « قال الخلال كان أحمد قد كتب كتب الرأى وحفظها ، ثم لم يلتفت إليها » .

فهذا خبر ليس لنا أن نرده ، ولكنا نقبله ، لأنه من غير المألوف أن تكون تلك النتائج العلمية بين يديه ، ولا يعرفها ، أو يستنكرها قبل أن يطلع عليها ، ولكنا مع قبولنا لذلك الكلام لا نقول إنه اطلع على كتب الرأى وحفظها فى مطلع حياته ، بل إن إلمامه بها كان فى غضون حياته العلمية بعد أن استمكن من علم الحديث ، وصار فيه الحجة الثبت الثقة .

وعلى ذلك يكون موقف أحمد من فقه الرأى أنه راد طريقه فى صدر حياته ، بدليل أنه تلقى أول الحديث عن أبى يوسف ، وهو قد كان من فقهاء الرأى ذوى

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢٣

القدم الثابتة فيه ، وإن كان مع ذلك قد اتصل بالمحدثين ، وأيد رأيه الفقهى بالحديث ، ثم اتجه إلى الحديث ، ولما استكمل تكوينه العلمى درس فقه الرأى دراسة فاحص ناقد يوازن بين ما انتهى اليه من علم الحديث ، وما وصل إليه أولئك الفقهاء من تفريع فقهى ، فاختار طريق الصحابة والتابعين ، وإن كان قد قبس قبسة من فقه الرأى ، وبذلك يكون حفظه لكتب أهل الرأى على حد تعبير الخلال ، أو معرفته لما وصل إليه أهل الرأى على حد التعبير العلمى الصحيح أمرا مقبولا معقولا .

٢٠ — طلب أحمد رضى الله عنه فى فجر شبابه الحديث ، وكان المحدثون فى كل بقاع الأراضى الإسلامية ، ففى البصرة محدثون وفى الكوفة مثلهم ، وبغداد قصبة الدولة ، فيها الكثير منهم ، وبلاد الحجاز تزخر بهم ، وقد التقت المدائن والأنصار التقاء علميا فى ذلك العصر ، فلم تكن ثمة محاجزات أقليمية تجعل كل طائفة عاكفة على حديث بلدها ، لا تقبل رواية غيره ، بل كانت الرحلة العلمية المستمرة بين الربوع الإسلامية واصلة حبال العلم ، وارسانه النورانية .

وعند ما اعتزم أحمد فى مستهل شبابه طلب الحديث كان لا بد أن يأخذ عن كل علماء الحديث فى العراق ، والشام ، والحجاز ، ولعله أول محدث قد جمع الأحاديث من كل الأقاليم ، ودونها ، وإن مسنده لشاهد صادق الشهادة بذلك ، فهو قد جمع الحديث الحجازى ، والشامى ، والبصرى ، والكوفى جمعاً متناسبا .

٢١ — وإن المنطق كان يوجب أن يتلقى أولا حديث بغداد ، حتى إذا استحفظ من حديثها جله طلب غيره ، وكذلك سار ، فهو اتجه إلى الحديث من سنة ١٧٩ ، واستمر مقيما ببغداد يأخذ من شيوخ الحديث فيها ، ويكتب كل ما يسمع ، حتى سنة ١٨٦ [1] . وابتدأ فى هذه السنة رحلته إلى البصرة ، وفى العام الذى وليه رحل إلى الحجاز ، ثم توالت رحلاته بعد ذلك إلى البصرة ، والحجاز ، واليمن ، وغيرها فى طلب الحديث .

وإذا كان قد طلب الحديث سنة ١٧٩ ، ولم يرحل رحلة علمية قبل سنة ١٨٦

---

(١) راجع فى هذا المناقب ص ٢٥

فكأنه استمر يطلب حديث البغداديين نحو سبع سنين أو أكثر ، لم يرحل فيها رحلة علمية ، وإن كان قد سافر فسفر غير بعيد ، ولغرض قريب .

٢٢ — لقد قصر أحمد نفسه فى هذه السنوات السبع على حديث علماء بغداد ومايحفظون من فتاوى مأثورة ، وأقضية للصحابة والتابعين فى أبواب الفقه المختلفة.

وإنه من المقرر أن الناشىء لا يبتدىء العلم يلقف من هنا وهنالك ، بل هو يلزم عالماً من العلماء زمناً طويلا أو قصيراً ، حتى يتخرج عليه ، حتى إذا شدا وترعرع التقف من الثمرات كل ما يصل إلى يده ، وكذلك كان أحمد رضى الله عنه ، فقد اتجه إلى طلب الحديث ، وفقه الآثار ، منذ بلغ السادسة عشرة سنة ١٧٩ ، ولكنه لم يترك نفسه للمنازع العلمية المختلفة من غير هاد يهتدى به ، بل لزم إماماً من أئمة الحديث وعلم الآثار فى بغداد ، واستمر يلازمه نحو أربع سنوات ، فلم يتركه ، حتى بلغ العشرين من عمره . ذلك الإمام هو هشيم بن بشير بن أبى خازم الواسطى المتوفى سنة ١٨٣ [١] ولقد روى عن أحمد خبر تلك الملازمة ومدتها ، فقد قال كما رواه عنه ابنه صالح ، « كتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين ، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين ، واثنتين وثمانين ، وثلاث ، ومات فى سنة ثلاث وثمانين ، كتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير وكتاب القضاء ، وكتباً صغارا » وسأله ابنه صالح بعد ذلك القول : يكون ثلاثة آلاف ؟ قال أكثر » [٢] .

ولم تكن تلك الملازمة تامة أى أنه لم ينقطع له انقطاعاً تاما ، ولم يتصل بغيره فى مدى أربع السنوات ، بل كان يتلقى عن غيره أحياناً ، ويحضر بعض مجالس سواه فيروى أنه سمع من عمير بن عبد الله بن خالد سنة ١٨٢ قبل موت هشيم

ولقد سمع أيضاً فى هذه الأثناء عبد الرحمن بن مهدى ، فيروى أنه قال : « قدم علينا عبد الرحمن بن مهدى سنة ثمانين ، وقد خضب ، وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وكنت أراه فى المسجد الجامع »

وكان أيضاً يستمع إلى أبى بكر بن عياش ، ويروى عنه .

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢٥ (٢) المصدر نفسه

ومن هذا كله يستفاد أنه مع تخصيصه شيخه هشيما بفضل من الملازمة لم ينقطع عن غيره انقطاعاً تاماً ، بل كان يختلط بغيره ، ويروى عنه ، ويلقف الأحاديث ، حيثما وجد الراوى الثقة ، وخصوصاً أولئك الذين لهم شهرة علمية فى الرواية وجمع الحديث فى البقاع الإسلامية .

٢٣ — بعد موت هشيم أخذ أحمد يتلقى الحديث حيثما وجده ، وحيثما كان ، ومكث ببغداد نحو ثلاث سنوات يأخذ من شيوخها بجد ودأب ، من غير أن يخص أحداً بفضل ملازمة دون غيره ، كما كان شأنه مع هشيم ، إذ كان قد بلغ العشرين عاماً أو قاربها عند موت هشيم ، فاستوى عوده ، واستقام على الجادة ، وسار فى طلب الحديث فى دءوب وجد وعزم صادق ، وأمه تشجعه وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إن وجدت منه إرهاقاً لها ، ولقد حكى أحمد بعض رفقها به ، فقد قال : « كنت ربما أردت البكور فى الحديث ، فتأخذ أمى بثيابى ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا » .

٢٤ — وفى السنة السادسة والثمانين بعد المائة ابتدأ رحلاته ؛ ليتلقى الحديث عن الرجال ، فرحل إلى البصرة ، ورحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، ورحل إلى الكوفة ، وكان يود أن يرحل إلى الرى ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد ، ولم يكن قد رآه قبل فى بغداد ، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه فى هذا السبيل .

وتوالت رحلاته ليتلقى عن رجال الحديث شفاهاً ، ويكتب من أفواههم ما يقولون .

رحل إلى البصرة خمس مرات ، كان يقيم فيها أحياناً ستة أشهر يتلقى عن بعض الشيوخ ، وأحياناً دون ذلك ، وأحياناً أكثر ، على حسب مقدار تلقيه من الشيخ الذى رحل إليه .

ورحل إلى الحجاز خمس مرات ، أولاها سنة ١٨٧ ، وفى هذه الرحلة قد التقى مع الشافعى ، وأخذ مع حديث أبى عينيه الذى كان مقصده إليه ـ فقه الشافعى ، وأصوله وبيانه لناسخ القرآن ومنسوخه ، وكان لقاؤه بالشافعى بعد ذلك فى بغداد عند

ما جاء الشافعي إليها ، وفي جعبته فقهه ، وأصوله محررة مقررة ، وإن كان والى تنقيح فقهه وأصوله من بعد في مصر ، وكان أحمد قد نضج ، حتى لقد كان الشافعي يعول عليه في معرفة صحة الأحاديث أحياناً ، وكان يقول له إذا صح عندكم الحديث ، فاعلمني به ، أذهب إليه حجازياً أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً[1]

وقد ذكر ابن كثير تفصيل هذه الرحلات الحجازية ، فقال : « أول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة ، ثم سنة إحدى وتسعين ، ثم سنة ست وتسعين ، وجاور في سنة سبع وتسعين ، ثم حج سنة ثمان وتسعين ، وجاور إلى سنة تسع وتسعين . . قال الإمام أحمد « حججت خمس حجج ، منها ثلاث راجلا ، وأنفقت في إحدى هذى الحجج ثلاثين درهماً ، وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش ، فجعلت أقول : يا عباد الله دلوني على الطريق ، حتى وقفت على الطريق »[2] . .

ولعله كان يحتسب في الحج ماشياً ، لأنه كلما عظمت المشقة مع الطاعة عظم الثواب أو لعل ذاك وهو الراجح القريب ، كان لعدم مقدرته على النفقة ، فكان يحج ماشياً ليقوم بالنسك ، وليجاور بيت الله الحرام ، وليطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع على فتاوى أصحابه والتابعين لهم .

ولقد رحل إلى الكوفة ، ولقي المشقة في هذه الرحلة مع قربها من بغداد لأن مقامه بالكوفة لم يكن ليناً رفيقاً ، بل كان ينام في بيت تحت رأسه لبنة كما حكى هو عن نفسه ، وقال لو كان عندي تسعون درهماً كنت رحلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري ، وخرج بعض أصحابنا ، ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي شيء .

٢٥ — ويظهر أنه كان يستطيب المشقة في طلب الحديث ، لأن الشيء الذي يجيء بيسر يكون قريب النسيان ، وكان فوق ذلك يحتسب نية الهجرة في سبيل الحديث لله سبحانه وتعالى .

وكان مما رسمه لنفسه أن يذهب إلى الحج سنة ثمان وتسعين ، وبعد الحج والمجاورة يذهب إلى عبد الرزاق بن همام بصنعاء اليمن ، وقد كاشف بهذه النية رفيقه

---

(١) تاريخ ابن كثير الجزء العاشر ص ٣٢٧ ، وقد كان هذا القول في الرحلة الثانية للشافعي إلى بغداد سنة ١٩٨

(٢) تاريخ ابن كثير جزء ١٠ ص ٣٢٦

فى الحج ، وصاحبه فى طلب العلم يحي بن معين ، وقد توافقت رغبتهما فى ذلك فدخلا مكة ، وبينما هما يطوفان طواف القدوم إذا عبد الرازق يطوف ، فرآه ابن معين ، وكان يعرفه ، فسلم عليه وقال له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال حياه الله وثبته ، فإنه يبلغنى عنه كل جميل . قال نجيء إليك غدا ، إن شاء الله ، حتى نسمع ، ونكتب ، فلما انصرف قال أحمد معترضا لم أخذت على الشيخ موعدا ! ! قال لنسمع منه ، قد أربحك الله مسيرة شهر ، ورجوع شهر ، والنفقة ، فقال أحمد ما كان الله يرانى ، وقد نويت نية أن أفسدها بما تقول ، نمضى فنسمع منه ، ثم مضى بعد الحج ، حتى سمع بصنعاء[1] .

انظر إلى النية المحتسبة للهجرة فى سبيل العلم ، قد لاحت له الفرصة التى تغنيه عن الهجرة ، فلم ينتهزها ، وآثر أن يضرب فى الأرض مهاجرا فى طلب العلم ، ولم يرد أن يأخذه رخاء سهلا ، تسهله المصادفة ، وتقربه الفرصة ، خشية أن يتعود ذلك فلا يركب فى سبيله المركب الصعب ، ويحتمل العيش الخشن .

وقد تحقق ما احتسب فسافر إلى صنعاء ، وناله العيش الخشن ، والمركب الصعب ، إذ انقطعت به النفقة فى الطريق فأكرى نفسه من بعض الحمالين إلى أن وافى صنعاء[2] ، وقد كانت رفقته تحاول أن تمد له يد المعونة ، فكان يردها حامدا لله فضل قوته التى تمكنه من أن يحصل على نفقاته .

ولما وصل إلى صنعاء حاول عبد الرازق أن يعينه ، فقال له يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء فانتفع به ، فإن أرضنا ليست بأرض متجر ، ولا مكسب ، ومد إليه بدنانير ، فقال أحمد أنا بخير ، ومكث على هذه المشقة سنتين استهان بهما ، إذ سمع أحاديث عن طريق الزهرى ، وابن المسيب ما كان يعلمها من قبل .

وقد استمر أحمد على الرحلة فى طلب العلم ، حتى بعد أن اكتملت رجولته ، ونضج علمه ، ولقد كان وعد الشافعى عند آخر لقاء بينهما أن يلحقه إلى مصر

---

(١) راجع ابن كثير ، وابن الجوزى .
(٢) حلية الأولياء .

ولكنه لم ينجز ما وعد ، فقد روى حرمله عن الشافعى أنه قال : « وعدنى أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر ، فلم يقدم » قال ابن أبى حاتم يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعته أن يفى بالعدة[١] .

٢٦ — طوف أحمد فى الأقاليم الإسلامية طالبا للحديث ، لا يستكثر الكثير ، ولا يني عن الكد واللغوب ، يحمل حقائب كتبه على ظهره ، حتى لقد رآه بعض عارفيه فى إحدى رحلاته ، وقد كثر ما رواه من الأحاديث ، وحفظه وكتبه ، فقال له معترضا مستكثرا ما حفظ ، وما كتب ، وما روى : « مرة إلى الكوفة !! ومرة إلى البصرة !! إلى متى !! »[٢] .

وقد استمر جده فى طلب الحديث وروايته ، حتى بعد أن بلغ مبلغ الإمامة ، حتى لقد رآه له رجل من معاصريه ، والمحبرة فى يده يكتب ، ويستمع ، فقال له يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين ، فقال « مع المحبرة إلى المقبرة » وكان رحمه الله تعالى يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر »[٣] .

وهكذا كان أحمد يسير على الحكمة المأثورة : « لا يزال الرجل عالما ما دام يطلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل » نطق بها عمله ، ونطق بها لسانه فى تلك الكلمات التى نقلناها عنه .

٢٧ — وقبل أن نترك الكلام فى هجرته فى سبيل العلم نشير إلى أمرين ذوى صلة بحياته العلمية ، ومكانته من بعد ، (أحدهما) أن أحمد كان معنيا بتدوين كل ما يسمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآثار أصحابه ، غير معتمد على الحافظة وحدها ، وذلك لأن العصر كان عصر تدوين العلوم ، ففيه دون الفقه ، وعلوم اللغة ، وعلوم الحديث ، فما كان يكتفى بالالتقاط بأذنه ، والحفظ بعقله ، بل كان يودع ما تلقاه بطون القراطيس ، كما أودعه قلبه الحافظ الواعى ، فكان يحفظ

---

(١) تاريخ ابن كثير .
(٢) ابن الجوزى ص ٢٨
(٣) ابن الجوزى ص ٣١

الأحاديث كلها ، واسنادها بطرائقها ، ولكنه إذا حدث لا يحدث إلا من كتاب ، أى مما كتب ونقل، خشية أن يضل عقله فينسى ، فيحرف كلم الرسول عن موضعه ، وذلك من فرط التقوى ، وليستمسك بالعروة الوثقى التى كان عليها بعض السلف الصالح الذين كانوا لا يحدثون خشية أن يشبه لهم ، كما ظنوا أنه يشبه لغيرهم .

والأخبار متضافرة بقوة حفظ أحمد ، وكثرة حفظه ، حتى إنه كان لا يدون الاسناد أحيانا اعتمادا على حفظه لها ، ويدون الأحاديث دائما ، ويحفظها ، ولكن لا ينطق بها إلا إذا قرأها مما كتب كما نوهنا ، حتى إنه لو سأله سائل عن حديث يحفظه بحث عنه فى كتبه ، ثم قرأه مما كتب ، يروى أنه سأله رجل من أهل مرو عن حديث ، فأمر ابنه عبد الله أن يحضر له كتاب الفوائد ليبحث عن الحديث فيه ، ولكنه لم يجده ، فقام بنفسه ، وأحضر الكتاب ، وكان عدة أجزاء ، وقعد يطلب الحديث ، وجاءه رجل يطلب الحديث وقال له تعلمنى مما علمك الله ، فدخل إلى منزله ، وأخرج كتب الحديث ، وجعل يملى عليه ، ثم يقول للرجل اقرأ ما كُتبت[1] .

فأحمد مع جودة حفظه ، وقوة واعيته ، كان لا يعتمد على ذاكرته ، بل يدون كل ما يسمع ، وإذا أدلى بالحديث لا يدلى إلا مما يدون مع وعى تام ، وحفظ عظيم ـ الأمر الثانى ـ الذى يجب التنبيه إليه قبل ترك الكلام فى طلبه العلم ، هو نوع العلم الذى كان يطلبه ، ولاشك أن الذى كان يحتفى به ، ويهتم بطلبه هو الحديث وآثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفتاوى أصحابه وآثارهم العلمية ، وما كانوا يجتهدون من مسائل ، فيحفظ كل ذلك ، ويتفهمه ، ويعرف مراميه ، وغاياته ، ويهتدى بذلك الهدى الكريم

٢٨ — ولكن هل معنى ذلك أن علم أحمد كان متصورا على الرواية لا يعدوها أى أنه كان لا يطلب غيرها ولا يتعرف سواها ، هذا هو موضع النظر ، وموضع الدراسة ، وسيكون له مكان من الفحص فى صدر الكلام فى فقهه ، ولكن ونحن الآن فى مقام ما كان يطلبه من العلم يجب أن نشير إشارة تكون تمهيداً ، لما سنبينه فى موضعه من القول إن شاء الله تعالى، لقد نوهنا إلى أن أحمد توجه فى صدر شبابه

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ١٩٠ ، ١٩١

إلى تلقى الحديث عن أبي يوسف ، ويقول ابن كثير إنه كان فى حداثته يختلف إلى مجلس القاضى أبى يوسف ، ولا شك أن اختلافه الى مجلس ذلك القاضى الفقيه الذى كان يفتى ويقضى برأيه إذا لم يجد النص المسعف له فى فتواه ، وفى قضائه ، لابد أن يعطيه فكرة عن الاستنباط الفقهى ، وأنه إن تعلم الحديث لم يكن المحدث الذى يروى من غير أن يستنبط ، ويتحرى ، ويفهم النصوص وغاياتها المصلحية ومراميها ، وإن متابعتنا لما تلقاه من دروس ، ومن التقى بهم من شيوخ يجعلنا نعتقد أنه كان معنياً باستنباط الأحكام من النصوص ، كما كان معنياً بالرواية والرواة ، لقد رأيناه فى مكة يلتقى بسفيان بن عيينه ، ويروى عنه ، ويكتب ما يستمع إليه منه ، ثم يلتقى بالشافعى ، وقد كان يدرس أصوله ، فتسترعى مناهجه الفقهية أحمد ، ويتلقى عليه تلك المناهج ، ويعجب بصاحبها إعجابا يدفعه إلى أن يدعو رفقته فى رحلته للاستماع إليه .

فقد جاء فى معجم ياقوت عن الآبرى مانصه : « قال إسحاق بن راهويه كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار ، فجاءنى أحمد بن حنبل ، فقال لى قم يا أبا يعقوب ، حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله ، فقمت ، فأتى بى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت ، حسن العقل وأجلسنى إلى جانبه ، فقال يا أبا عبد الله هذا إسحاق بن راهويه الحنظلى ، فرحب بى ، وحيانى ، فذاكرته ، وذاكرنى ، فانفجر لى منه علم أعجبنى ، فلما طال مجلسنا قلت قم بنا إلى الرجل . قال هذا هو الرجل ، فقلت يا سبحان الله ، قمت من عند رجل يقول حدثنا الزهري ، فما توهمت إلا أن تأتينا برجل مثل الزهرى أو قريب منه ، فأتيت بنا إلى هذا الشاب ، فقال لى يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل ، فأنه ما رأت عيناى مثله » .

فهذه القصة تدل دلالة لا شك فيها على أن أحمد كان يعجب بعلم الشافعى أيما إعجاب ، ولقد روى أن أحمد قال : « يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ،

فكان عمر بن العزيز على رأس المائة ، وأرجو أن يكون الشافعى على راس المائة[١] » .

وأى شىء عند الشافعى كان يعجب به أحمد بن حنبل ؟ ليس هو الرواية ، فلم يكن فى منزلة سفيان بن عيينة فيها ، ولم يكن فى منزلة أحمد نفسه فيها ، وإنما الذى كان عند الشافعى ، وتلقاه عليه أحمد فى مكة وبغداد هو التخريج الفقهى وأصول الاستنباط ومنهاج الاستنباط ، فهذا هو المعجب الذى استرعى ذهنه واستولى على فكره .

٢٩ — وإذا كان كذلك فيجب أن نقرر أن أحمد كان يطلب فيما يطلب علم الفقه والإستنباط مع الرواية وتلقى ذلك عن الشافعى وغيره ، بل إننا لننتهى إلى أن نقبل ماقيل عنه من أنه كان يحفظ كتب أهل الرأى ، ولكن لا يأخذ بها أو يعرض عنها ، ولم يلتفت إليها ، فقد قال تلميذه الخلال ، كان أحمد قد كتب كتب الرأى وحفظها ثم لم يلتفت إليها[٢] » .

فهذا النقل مقبول ، وهو يدل على أن أحمد كان معنيا فى دراسته بعلم الفقه ، والرأى والقياس والإستنباط ، وإن كان لم يجد فيما كتب فقهاء الرأى العراقيين ، وهم أبو حنيفة وتلاميذه ما ينقع غلته ، ويشبع نهمته ، أو يتفق مع نزعته الأثرية ، وهو على أى حال كان معنيا بدراسة الفقه ، وإن لم يرض طريقة بعض الفقهاء .

٣٠ — وإذا كان أحمد كان يطلب الفقه وهو معنى بالحديث ، ورواية الآثار أبلغ عناية ، فلا بد أنه كان يدرس الحديث دراسة متفهم لمراميه ، وغاياته ومعانيه الفقهية ، لقد كان يطلب فتاوى الصحابة وتجد فى مسنده لكل صحابى طائفة كبيرة من فقهه وفتاويه ، ففى مسند عمر طائفة من الفتاوى التى كان يفتى بها ذلك الفقيه العظيم ، وفى مسند على ، وعثمان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم — مقادير كبيرة من فتاويهم ، وأقضية من ولى الأمر منهم .

---

(١) راجع كتاب الشافعى للمؤلف ص ٣٦ الطبعة الأولى ،

(٢) راجع ترجمة أحمد فى تاريخ الذهبى

ورواية تلك المجموعات مع العناية بدراسة الفقه منها ، يتكون منها الفقيه ، وبذلك يلتقى الحديث والفقه فى أحمد رضى الله عنه ، وبذلك يكون أحمد المحدث والفقيه معا ، ولقد قال أبو حنيفة : « مثل من يطلب الحديث ، ولا يتفقه ، مثل الصيدلانى يجمع الأدوية ، ولا يعرف لأى داء هى ، حتى يجىء الطبيب ، هذا طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه ، حتى يجىء الفقيه[1] »

وأحمد فى جمعه بين الفقه والحديث ، والإمامة فيهما كان كمالك ، بيد أن مالكا كان أوضح فقها ، ولذلك فضل بيان سنذكره عند الكلام فى فقهه وحديثه ، ونوازن بينه وبين مالك فى ذلك .

٣١ — وهل اطلع أحمد على غير الفقه والحديث وعلوم العربية ؟ يغلب على الظن أنه لم يطلب غير هذه العلوم ، فلم يطلب علم الكلام ، ولا العلوم الفلسفية التى كثرت ترجمتها فى حياته لأنه لم يجد شيئاً من العلم جديرا بالعناية غير الحديث والكتاب ، وما هو كالآلة لفهم كل العلوم الدينية ، وهو العلوم العربية .

ولكن لا نستطيع أن نقول إن أحمد لم يطلع على بعض آراء الفرق المختلفة ، كالخوارج والشيعة ، والجهمية ، والمعتزلة ، وغيرهم ؛ بل إن الظن كل الظن أن يكون أحمد ألم بهذه الفرق ، وحياته وأخباره تمهد لذلك ، ولا تنافيه ، ذلك لأنه رحل إلى البصرة خمس مرات لطلب الحديث ، وكانت إقامته تمتد إلى ستة أشهر أو تزيد ، والبصرة كانت موطن الاعتزال ، وفى باديتها كان الخوارج يرابطون ويغيرون ، وكان الجهمية والمرجئة لهم طوائف فيها وفى الكوفة ، والعالم الباحث يصل إليه علم كثير ممن يجاورهم ويخالطهم ، ويتصل بهم ، وأحاديث أصحاب هذه الفرق كانت تسرى فى المجالس فى مساق الإستحسان فى بعضها ، ومساق الاستهجان فى بعضها ، فكان أهل العلم يلمون بها مستنكرين أو مستحسنين ، وأيضاً فان أحمد قد كان يرمى أصحاب هذه الآراء بالابتداع ، وأنهم كانوا بعيدين عن منهاج السلف وما كان لمثل أحمد فى

(١) كتاب أبو حنيفة للمؤلف ص ٧٦ الطبعة الثانية .

حرصه وعقله أن يرمى أناساً بهذه الرمية من غير أن يعرف مقالتهم ، إذ الحكم على الشيء نفيا أو إثباتاً ، واستحسانا أو استهجانا ، فرع عن تصوره ومعرفته .

وأيضاً فإن أحمد كان ينتقى الرجال الذين يروى عنهم حريصاً على أن يكونوا ممن لم يخوضوا فى أمثال هذه الأقوال التى كان يراها بدعا فى الدين ، وكان ذلك بلا ريب يقتضى أن يكون ملما بعض الإلمام بها ، وعارفا بعض المعرفة لها .

من أجل هذه الاعتبارات كلها نظن ظنا قريباً من اليقين أن أحمد قد اطلع أو ألم بأقوال هذه الفرق ، وأن يكون قد سرى اليه بعض العلوم التى كانت فى عصره ، وإن لم تتأثر بها نفسه ، وتشربها روحه ، إذ لم تتفق مع نزوعه ، ولم تتلاق مع ميوله ، وإن المقدمات التى سقناها ، لا تدل على أنه كان يعلمها علما كاملا محيطا بكل نواحيها مستغرقا لكل فنونها واتجاهاتها ، ولكنها تدل على معرفتها فى الجملة ، وإن لم تكن معرفة استقصاء ، وإن ذلك وحده يكفى للحكم على اتصال العالم ببيئته ، وما كان يسود عصره من أفكار وآراء .

٣٢ — وإن ذلك الظن يرتفع إلى درجة اليقين عند ما نعلم أن أحمد كان يعلم الفارسية ، ويتكلم بها أحيانا ، إذا كان مخاطبه لا يحسن العربية ، ولا يستطيع الإفهام بها ، وليست معرفة ذلك مأخوذة بطريق التلمس ، بل مأخوذة بطريق الخبر الصحيح والنقل ، وإذا كانت صلة أحمد بمعاصريه أوجبت عليه أن يتعلم لسانا غير عربى ، فالأولى أن توجب عليه هذه الصلة أن يعرف العلوم التى كانت سائدة فى عصره ، وإن كان لا يؤمن بها ، بل يزجيها ، ويردها ، وينفر الناس منها .

والخبر بمعرفة أحمد بالفارسية صحيح ، فإنه يروى كما جاء فى تاريخ الذهبى ، أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته ونزل عنده ، ولما قدم له الطعام كان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها ، وما بقى من ذوى أحمد بها ، وربما استعجم القول على الضيف ، فيكلمه أحمد بالفارسية .

وراوى هذا الخبر هو زهير حفيد أحمد رضى الله عنه ، ويذكر أنه شاهد ذلك

وعاينه ، وليس عندنا دليل على نفى الخبر ، وكل خبر راويه ثقة لا يرد إلا إذا قام الدليل على رده ، ولا دليل .

وليس معنى علم أحمد بالفارسية أنه استعان بها فى فقهه ، ففقهه كما سنبين فقه أثرى نقلى ، ليس فيه اعتماد على الاستنباط الفلسفى ، ومسائله المروية عنه ليس فيها مايدل على تأثر بفكر فارسى ، وإن كان فيها تأثر إقليمى أحيانا إذا كان أساس الاستنباط قياسا ، أو مصلحة ، أو سد ذريعة ، وليس الأساس نصا ، وإنه من المؤكد أن أحمد كان يأخذ بالقياس بقدر قليل ، وبالمصلحة على أساس أن الأصل فى المصالح الإباحة ، حتى يقوم الدليل على البطلان بنص على عدم اعتبارها ، فما دام لم يقل هذا الدليل ، فالمصلحة على أصل إباحتها ، ولذلك فضل بيان فى فقهه .

٣٣ — جلوسه للتحديث والفتوى : طلب أحمد الحديث من رجاله ، واستمع إليهم ، وكتب عنهم كل ما استمع ، واحتفظ بكل ما كتب بعناية الحريص ، واهتمام الراغب ، ولم يقتصر على ربوع بغداد ، ومساجدها يتلقى على علمائها ، وهم العدد الكثير ، وفيهم ذوو الحفظ ، والوعى والتقى ، بل طوف فى الأقاليم الإسلامية فرحل إلى البصرة وإلى الكوفة ، وإلى الحجاز ، وما سمع بعالم إلا رحل إليه ، إلا إن حالت المنية دون اللقاء ، فلم يستطع الاستماع إلى مالك ، إذ مات عند ابتدائه فى طلب الحديث ، والعود أخضر ، ولم يتمكن من الاستماع الى ابن المبارك ، اذ أن آخر قدمة له ببغداد كانت فى السنة التى اتجه فيها أحمد الى طلب الحديث ، ولم يظفر بلقائه ، فقد رحل الى طرطوس ، ولم يعد بعدها الى بغداد .

ولقد كان يحس بأن لقاء أولئك العلية من العلماء قد فاته ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكنه من درء هذا النقص ، ولذلك كان يقول : « فاتنى مالك ، فأخلف الله على سفيان بن عيينة ، وفاتنى حماد بن زيد ، فأخلف الله على اسماعيل بن علية »[1] .

طلب الحديث من كل مصادره التى كانت فى عصره ، واتصل بعصره اتصالا

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٣١

فكرياً ، وعلم أشتات العلوم التى لها صلة بالدين ، ألم ببعضها ، وتعمق فى خيرها ، وآن له أن ينتج بعد أن استحصد ، وجاء وقت إثمار تلك الشجرة بعد أن استقامت سوقها ، وتهدلت فروعها ، وغاصت فى بطون الأرض جذورها ، ودنا جناها ، ورآه الناس ، واستطابوه .

٣٤ — عندئذ جلس أحمد للتحديث والفتيا ، ولقد قال ابن الجوزى إن أحمد لم ينصب نفسه للحديث والفتوى إلا بعد أن بلغ الأربعين ويحكى فى ذلك « أن بعض معاصريه جاء يطلب إليه الحديث سنة ٢٠٣ (ثلاث ومائتين) فأبى أن يحدثه ، فذهب إلى عبد الرزاق بن همام باليمن ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ (أربع ومائتين)، فوجد أحمد قد حدث ، واستوى الناس عليه[1] » .

لم يتخذ أحمد إذن مجلساً لدرسه فى الحديث والفتاوى فى الواقعات ، إلا بعد أن بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة ، ولم يسمح لنفسه قبل بلوغه هذه السن أن يتخذ له مجلساً للحديث والفتوى ، وما سر ذلك ، وقد رأينا غيره من الفقهاء قد اتخذوا هذه المجالس لهم قبل بلوغهم هذه السن ، فالشافعى اتخذ مجلسه فى مكة للدرس والإفتاء قبل هذه السن ، ومالك رضى الله عنه يرجح أنه جلس للدرس والإفتاء قبل ذلك ؟ ولقد علل هو ذلك بأنه لم يستسغ التحديث ، وبعض شيوخه حى ، فلقد ذكر أحد معاصريه أنه سأله أن يملى عليه حديثاً رواه عن عبد الرزاق ، فامتنع لأن عبد الرزاق حى .

وعندى أن أحمد كان متبعاً للسنة لا يحيد عنها ، كان يفعل ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله ، ولا يفعل ما لم يفعله ، حتى إنه كان إذا احتجم أعطى الحجام دينارا ، لأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا » وأنه تسرّى مع عدم رغبته الطبيعية فيه ، بل تسرى ، لأنه علم أن النبى صلى الله عليه وسلم تسرى ، وقد استأذن زوجته فى ذلك ، فأذنت له ، لتعينه على الأتباع .

---

(١) المناقب ص١٨٨

وإذا كان أحمد حريصاً على الاتباع فى هذه الأمور التى تعد من صغار الأعمال فأولى أن يكون متبعاً فى ذلك الأمر الجليل الذى لايوجد عمل أخطر منه فى نظر أحمد وغيره، وهو عمل النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، ألا وهو الدرس والتحديث والافتاء، لقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى الأربعين، وبلغ رسالة ربه فى هذه السن، ولم يرسله الله رحمة للناس إلا فيها، فلا بد أن أحمد المتبع المقتدى استحيا أن يجلس للفتيا والحديث إلا بعد أن بلغ الأربعين، وبعد أن تكامل نموه فى الجسم والروح.

هذا ما نراه تعليلا لامتناعه عن الجلوس للحديث والفتوى قبل أن يبلغ هذه السن، وهو تعليل متلمس من جملة أحواله، وإن لم نجد نصاً عليه فيما تحت أيدينا من مصادر.

٣٥ — ولسنا نستطيع ان نقرر أن أحمد قد استفتى فيما يعلم فيه أثراً وامتنع عن الفتوى قبل هذه السن، أو سئل حديثاً وامتنع عن ذكره، بل إننا نقطع بنقيض ذلك، لأنه إن امتنع كان كاتماً للعلم؛ حائلا دون نشر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كتمان العلم، والدين يوجب إفشاء أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشرها.

ولقد شهدت بعض الأخبار بصدق ذلك، فقد رؤى يفتى فى مسجد الخيف، سنة ١٩٨ أى وهو فى الرابعة والثلاثين.

وإن الجمع بين هذا الخبر وما قررناه من أنه لم يجلس للتحدث والفتيا إلا بعد أن بلغ الأربعين — يكون بأن الفتيا عند الضرورة أمر لابد منه تجب على كل من يعلم موضع الفتوى مهما يكن، أما الجلوس للدرس يقصده أهل العلم لطلبه، والأخذ عنه، والرجوع إليه، فذلك مالم يتصد له أحمد إلا بعد الأربعين، عند ما وجد المكان شاغراً ببغداد فملأه، وعند ما وجد أن الاتباع ألا يجلس للتحديث والافتاء إلا بعد بلوغ سن الرسالة والله أعلم.

٣٥ — لم يجلس أحمد للدرس والافتاء إلا بعد أن اكتمل، كما بينا، وسرى بين الناس حديث صلاحه وتقواه وورعه وزهده وعفته عما فى أيدى الناس،

وعكوفه على الحديث، يسير لطلبه ، ويركب الصعب والزلول، حتى يصل إلى عالم يتلقى عنه.

ذلك لأن الناس (ولو كانوا غير فضلاء) يشيع فيهم ذكر أهل الفضل ، وينوهون بهم ، وهم دونهم ، فقد تسايرت الركبان بذكر احمد وفضله ودينه قبل أن يجلس للتحديث والأفتاء ، حتى إنه عندما ذهب إلى عبد الرازق بصنعاء كان قد وصل إليه وزهده وتقواه وورعه ، وهديه وعلمه وحفظه .

ويظهر أنه ما جلس للدرس والأفتاء إلا بعد أن قصده الناس للسؤال عن الحديث ، والفقه ، فاضطر لأن يجلس لإجابتهم فى المسجد ، وكانت حياته بعد ذلك تنمى هذه الشهرة وتقويها ، فلقد عاين الناس فضله ووجدوا تعففه عما عند الولاة والأمراء ، ومراعاته لحرمة المسلمين ، ثم نزلت المحنة التى صهرت نفسه ، وبينت مقدار جلده وصبره ، وتوالت النوازل ، فزاده ذلك علوا ورفعة ، وزادت مكانته عند الله والناس ، ثم كان تواضعه ، ورغبته الواضحة فى الخمول ، وفراره من التنويه ، فعرفه الناس ، وأذاعوا ذكره ، فكان يفر من الشرف ، فيتبعه الشرف ، كما قال خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

٣٦ — وإذا كان احمد قد ذاع ذكره فى الآفاق الاسلامية قبل أن يجلس للدرس والأفتاء ، فلا بد أن يكون الازدحام على درسه شديداً ، ولقد ذكر بعض الرواة أن عدة من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف ، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسمائة ، [1] ولا بد أن المكان الذى يسع هؤلاء هو المسجد الجامع ببغداد دون سواه ، فلا بد أن درس أحمد كان فيه ، ولسنا نسلم بأن ذلك العدد هو الأحصاء الدقيق الصحيح لمن كانوا يحضرون درسه ، ولكن ذكر العدد يدل على الضخامة ، ولو نزل العدد إلى النصف بل إلى الخمس لكان كثيرا ، ولدل على مكانة أحمد عند البغداديين ، وإنها لمكانة عظيمة ، وإن كثرة هؤلاء الذين كانوا يحضرون درسه فى المسجد كانت سبباً فى كثرة رواة فقهه وحديثه ، كما سنشير إلى ذلك عند الكلام فى فقهه .

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢١٠ .

ويجب أن نذكر فى هذا المقام أنه لم يكن كل الذين يحضرون راغبين فى علم أحمد ، بل منهم من كان يتيمن به ، ومنهم من كان يريد أن يتعظ به ، ومنهم من كان يجىء ، ليعرف حال ذلك الرجل الغريب ، وينظر إلى هديه وخلقه وأدبه ، ولقد جاء فى المناقب لا بن الجوزى عن بعض معاصر به أنه قال : « اختلفت إلى أبى عبد الله أحمد بن حنبل اثنتى عشرة سنة ، وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثاً واحداً ، وإنما كنت أميل إلى هديه واخلاقه وآدابه »[1] .

٣٧ — ويظهر أنه كان له مجلسان للدرس والتحديث (أحدهما) فى منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه وأولاده ، والثانى فى المسجد يحضر إليه العامة والتلاميذ ، وقد رأينا كيف كان يذكر بعضهم أن درسه يبلغ من يحضره خمسة آلاف ، وأن خمسمائة فقط هم الذين يكتبون أى نحو عشر الحاضرين الذين ينقلون عنه الحديث ، ويروونه ، وهم الخاصة من تلاميذه والمستمعين اليه ، وخاصة الخاصة من تلاميذه هم الذين كانوا يذهبون إلى بيته ويتلقون عنه مع أولاده وأهله .

وقد كان وقت درسه فى المسجد بعد العصر كما جاء فى تاريخ الذهبى ، ولعله كان يختار ذلك الوقت ؛ لأنه قبل عتمة الليل ، وبعد وهج النهار ، ولأنه وقت راحة لأكثر الناس ، فيتيسر لهم أن يحضروا ؛ ولأنه وقت صفاء النفس ، وفراغها من مشاغل الحياة ، واضطرابها ؛ فيكون الحديث أو الافتاء ، والنفس مستجمة مقبلة ، لا كليلة مدبرة ، والدرس عند اقبال النفس أعمق أثرا فيها ، وأكثر شيوعا فى نواحيها .

٣٨ — ويلاحظ فى درس أحمد ثلاثة أمور جعلت له أثرا فى النفوس جيداً ، وهذه الأمور هى :

أولا : أنه كان يسود مجلسه الوقار والسكينه مع تواضع واطمئنان نفسى ، ولم يكن الوقار فى مجلس علمه وحده .

كان فى كل مجالسه ، لا يمزح ولا يلهو ، لأن اللهو فى جملته باطل ، ولأن كل مزحة مجة من العقل ، وقد علم مخالطوه منه ذلك ، فكانوا لا يمزحون فى حضرته قط

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢١٠

فى مجلس علم أو فى غير مجلس علم ، بل إن شيوخه علموا ذلك ، فكانوا هم أيضاً لا يمزحون فى حضرته ، فقد روى ابن نعيم عن خلف بن سالم أنه قال « كنا فى مجلس يزيد بن هارون ، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد بن حنبل ، فضرب بيده على جبينه ، وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد هنا ، حتى لا أمزح » .

كانت روح الجد والسكينة هى التى تظل مجلسه : لأن ذلك هو الذى يتفق مع رواية السنة النبوية الشريفه ، وآثار الرسول الكريم ، وفتاوى السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم ، ومن شأن السكينة أن تجعل للقول مكانه من القلب ، ومنزلته من النفس ، وإنه وإن كانت الدعابة تذهب بالملال ، كثيرتها تذهب بالروعة ورواء العلم ، وقد تجنب أحمد المزاح جملة ، إذ رواية السنة عبادة عنده ، ولا مزح فى وقت العبادة ، بل المزح ينافيها ، ولا خير فيمن يمل من العبادة برواية علم الرسول ، وخير ما وصل إليه أصحابه .

٣٩ — ثانى الأمور ، التى كانت تلاحظ فى درسه أنه كان لا يلقى الدرس من غير طلب ، بل يسأل عن الأحاديث المروية فى موضوع ، فيستحضر الكتب التى دون فيها تلك الأحاديث ، فهو أولا ما كان يقول حتى يطلب منه ، وثانياً كان إذا قال حديثاً نبوياً لا يقوله إلا من كتاب حرصا على جودة النقل ، وإبعادا لمظنة الخطأ ما أمكن ، كما بينا ، وفى الأحوال النادرة جداً كان يقول الحديث من غير رجوع إلى كتاب ، حتى إنهم أحصوا المرات التى قال فيها الحديث من غير كتاب فى مدى تحديثه ، فكانت عدتها لا تتجاوز مائة حديث فى حياة مديدة فى الرواية والنقل مكث فيها يفتى ويحدث ما يقارب الأربعين عاما .

وقد جاء فى تاريخ الذهبى عن المروذى صاحب أحمد فى وصف مجالسه « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبدالله ، كان مائلا إليهم ، مقصراً عن أهل

---

(١) راجع ترجمة الذهبى لأحمد بن حنبل التى نقلت فى مقدمات طبع مكتبة المعارف لمسند أحمد بتحقيق الاستاذ الشيخ احمد شاكر .

الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، بل كان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس مجلسه بعد العصر ، لا يتكلم حتى يسأل »[١].

ترى من هذا النقل كيف كان لا يقول إلا إذا سئل ، حتى يكون البيان وقت الطلب ، ويظهر أنه لما كتب مسنده كان يمليه على أولاده وخاصة تلاميذه من غير طلب ، بخلاف ما كان من الشأن لغيره ، فأنه ما كان يذكر حديثاً حتى يسأل عنه .

ويروى ابن الجوزى عن أبى حاتم الرازى ، فيقول : « أتيت أحمد بن حنبل فى أول ما التقيت به فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وإذا هو قد أخرج معه إلى الصلاة ، كتاب الأشربة ، وكتاب الايمان ، فصلى ، فلم يسأله أحد ، فرده إلى بيته ، وأتيته يوما آخر ، فإذا هو قد أخرج الكتابين ، فظننت أنه يحتسب فى إخراج ذلك ؛ لأن كتاب الإيمان أصل الدين ، وكتاب الأشربة يفرق الناس عن الشر ، فإن أصل كل شىء من السكر[١] » .

وهذا النص يدل على أن أحمد كان يخرج إلى المسجد ومعه كتب يظن الناس يسألونه عن موضوع ما فيها من حديث ، فهو يخرج كتاب الإيمان من الأحاديث لظنه أن يسأله الناس عن أحاديث الايمان فى وقت قد اضطربت فيه العقائد ، وتعددت أسباب الزيغ ، ويخرج أيضاً كتاب الأشربة فى وقت كثرت فيه الأشربة المحرمة ، وتعددت أنواعها ، وخشى فيه أهل التقى أن يقعوا فى المحرم من حيث لا يشعرون ، ويقعوا فى خبيث الشراب ، من حيث يظنونه من طيبات ما أحل الله سبحانه .

وهذه الأخبار كلها تنبئ عن أن أحمد رضى الله عنه ما كان يذكر حديثا حتى يسأل عن موضوعه ، وأنه لا يجيب إلا عن كتاب منقول ، وإن كان الحافظ الثبت الثقة ، بل الذى يجمع الرواة على أنه لم يكن فى عصره أحفظ منه ، وأثبت ، وأوثق

ولقد قال ولده عبد الله « ما رأيت أبى حدث من حفظه من غير كتاب ، إلا بأقل من مائة حديث[٢] » .

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص ١٦٥

(٢) غذاء الألباب ص ٢٥٩

ولقد كان يحث تلاميذه وأصحابه على ذلك ، وينهاهم أن يحدثوا من غير كتاب خشية أن يضلوا ، يروى أن على بن المدينى كان لا يحدث إلا من كتاب ، وقال : « إن سيدى أحمد بن حنبل أمرنى ألا أحدث إلا من كتاب » .

وابن المدينى الذى يحكى عن الإمام أحمد ذلك الأمر هو الذى يقول فيه : « ليس فى أصحابنا أحفظ من أبى عبدالله » .

٤٠ — وثالث الأمور التى كانت تلاحظ على مجالس أحمد بن حنبل فى دروسه أنها كانت من حيث موضوعها قسمين : (أحدهما) رواية الحديث ونقله ، وهذه يمليها على تلاميذه من كتاب ، كما رأيت ، ولا يعتمد على حفظه إلا نادراً .

(وثانيهما) فتاوية الفقهية التى كان يضطر إلى استنباطها ، وهذه لا يسمح لتلاميذه أن يدونوها ، ولا يسمح لهم أن ينقلوها عنه ، إذ أنه ما كان يستجيز التدوين إلا لاحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويرى أن علم الدين وحده هو علم الكتاب والسنة ، وأن من البدع تدوين آراء الناس فى الدين بجوار كتاب الله وسنة رسوله ، وكان أبغض الأشياء إليه أن يرى كتابا قد دونت فيه فتوى له رضى الله عنه ، وكان يكره من أصحابه أن ينقلوا عنه فتاويه ، وربما أنكر نسبتها إليه ، لأنه لم يحفظ ما قال ، ولم يقصد إلى حفظه ؛ لأنه ذلك غير جائز فى نظره .

لقد بلغه أن بعض تلاميذه روى عنه مسائل ، ونشرها بخراسان ، فقال : اشهدوا أنى رجعت عن ذلك كله » وجاء إليه رجل خراسانى بكتب ، فنظر فى كتاب من بينها ، فوقع نظره ، فوجد كلامه ، فغضب ، ورمى الكتاب من يديه .

ولم يكن ذلك بالنسبة لآرائه هو فقط ، بل بالنسبة لفقه غيره ، فلقد سأله رجل هل يكتب كتب الرأى ، فقال : (لا) : قال السائل ، فابن المبارك كتبها ، قال أحمد : « ابن المبارك لم ينزل من السماء ، انما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق [1] » وينهى المحدثين عن أن يكتبوا كتب الشافعى ، وأبى ثور ، مع أن الشافعى منزلته منه بمنزلة الأستاذ ، وله عنده المكان المكين ، ولكن أحمد الذى كان ينهى ذلك النهى جمعت كل الروايات

(١) راجع هذه النقول فى المناقب لابن الجوزى ص ١٩٢ — ١٩٣

عنه فى مجلدات ضخام ، وكان للناس فيها نظر نرجئه إلى الكلام فى رواية فقهه .

٤١ — وقبل أن نترك الكلام فى درس أحمد ، ونحن نسرد مجرى حياته ، يجدر بنا أن نشير إلى أمر ذى بالى هنا وهو أن أحمد رضى الله عنه كان يحيا ، وهو يطلب الحديث والفقه ، ثم وهو يلقى الحديث والفقه إذا سئل عنهما — حياة سلفية خالصة ، تجرد فيها من ملابسات العصر ، ومناحراته ، وما يجرى من منازلات فكرية ، وسياسية أو إجتماعية أو حربية ، واختار أن يحلق بروحه فى جو الصحابة والصفوة من التابعين ، ومن جاء بعدهم ، ممن نهج نهجهم ، واختار سبيلهم ، لذلك كان علمه وفقهه هو علم السنة وفقهها ، لا يخوض فى أمر ، إلا إذ علم أن الصحابة خاضوا فيه ، فإن علم ذلك اتبع رأيهم ، ونفى غيره ، وإن لم يعلم أن الصحابة خاضوا فى ذلك الأمر كف عنه ، واستعصم متوقفاً حذراً ، فلا يقفو ما ليس له به علم ، لأنه يعتقد أن الخروج عن تلك الجادة زيغ عن منهاج السلف ، وإلحاد فى دين الله سبحانه ، وتعالى ، لا يتكلف التعمق فى مسائل عقلية قد تكون متاهات للعقل البشرى ، وان خرج من وعثائها سالما ، فقد جهد نفسه غير طائل ، وشغل فكره فى غير جدوى ، ولها عن ذكر الله ، وقسا قلبه ، وصد نفسه عن سبيل العبادة .

لم يشغل أحمد نفسه بغير علم السلف ، والحياة الروحية فى جنة هؤلاء السلف ، ولم يدرس شيئا غير ما يتصل بهم .

٤٢ — ولماذا سلك أحمد ذلك المسلك ؟ من أجل الأجابة عن هذا السؤال يجب أن نمس عصره ببعض البيان مساً رفيقا مرجئين بيان ذلك العصر بيانا مناسباً إلى موضعه من بحثنا .

إن عصر أحمد قد غلب فيه العنصر الفارسى والعنصر العربى ، وسادت الحضارة الفارسية ، أوغير العربية بشكل عام — المجتمع الاسلامى ، وماجت المدن الاسلامية بعناصر مختلفة من أمم متباينة الأرومة ، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما ، وامتزجت مدنيات ، وتصادمت حضارات .

ومن طبيعة العصر الذى تكثر فيه المنازعات ، ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة

بعضها ببعض أن تظهر فيه آراء منحرفة ، وأخلاق منحرفة ، ويكثر الشذوذ الفكرى ، والشذوذ الاجتماعى ، حتى يصبح الشاذ هو الكثير ، والغريب هو المألوف .

ظهرت كل هذه الأمور فى العصر العباسى من وقت أن استقرت الأمور لهذه الدولة التى قامت على السيوف الفارسية ، ولكن المنصور حكمها بشكائم قوية ، فلم تستمكن ، فلما جاء المهدى ظهرت فتن هائجة ثائرة حاملة السيف ، ولكنه استطاع أن يقمعها ، وأراد الرشيد أن يغالب هذه المنازع ، وقد تحولت إلى المجتمع الاسلامى تسرى فيه من غير حرب تحمل السيف ، فأدنى إليه الفقهاء والمحدثين ، وكان لهم فى دولته مكان الصدارة ، ولكن جاء المأمون وما تم له الأمر على أخيه الأمين إلا بنصرة الفرس ـ فقويت العناصر غير العربية ، واشتدت وكان للفلسفة والعلوم الجديدة من المأمون أعظم ناصر .

كثر الشطار والمفسدون ، وكثر المخربون فى المجتمع الاسلامى من وراء ستار وكثرت الآراء الغريبة على العقل الاسلامى ، فنهج السلفيون منهاجين مختلفين ، فريق نهج منهاج المقاومة والمغالبة ، واختار أحمد أن يعيش فى وسط تلك المنازع غريبا عنها ، محلقاً فى سماء السلف الصالح بروحه ، حتى لقد وصفه بعض معاصريه بأنه تابعى كبير تخلف به الزمن .

٤٣ — إن أحمد رضى الله عنه قاطع الذين يخوضون فى غير ما أثر عن السلف مقاطعة تامة ، حتى إنه ما كان يستجيز لنفسه الرد عليهم ، وكان على ذلك إلى أن مات

ولقد كتب رجل إليه يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، فكتب إليه أحمد رضى الله عنه الكتاب التالى :

« أحسن الله عاقبتك ، الذى كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا ، أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله ، لا تعد ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث ، من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه فى دينه »[1] .

---

(١) ترجمة الحافظ الذهبى لأحمد المطبوعة فى مقدمة المسند طبع المعارف .

لقد كان أحمد ينهى الناس عن علم الكلام ، وهو العلم الذى يتكلم فى العقائد بطرق فلسفية ، فكان يذم أهل الكلام ، وإن أصابوا ، وينهى عن تدقيق النظر فى أسماء الله تعالى وصفاته .

وما كان ذلك النهى ، إلا لأن هذا مسلك لم يسلكه السلف ، ولأنه إن أدى إلى الصواب مرة قد يؤدى إلى الضلال ، وقد يتيه العقل به فى متاهات لا جدوى عند النجاة منها ، وفيها الضلال البعيد إن لم تكن النجاة .

٤٤ — انصرف أحمد إلى دراساته انصراف المؤمن المطمئن ، الذى يعيش فى جو المؤمنين ، ويرفع نفسه إلى عصر الصحابة والتابعين ، ويدعو تلاميذه إلى أن ينهجوا نهجه ، يدعوهم بالقول ، ويدعوهم بالفعل ، لقد كان هو مثالا صالحاً الرجل السلفى المتقى ، وكان فى ذلك ينهج منهاج من عاشوا فى مثل ما عاش ، كسفيان الثورى وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم ممن سنتكلم عنهم فى موضعهم من بحثنا إن شاء الله تعالى :

ولقد كان يحق لذلك الورع التقى أن يعيش هادئا مطمئنا قاراً فى بيته ومسجده لا يزعجه مزعج ، ولكن قد قدر لذلك النذير الساكن المطمئن أن تلقى فيه الأحجار ، فتفسد عليه اطمئنانه ، وتزعجه فى اعتقاده وإيمانه ، قد قدر لذلك الأمام الجليل أن يمتحن أبلغ المحنه ، وأن يكرث فى جسمه ، وأن يهز اعتقاده هزا عنيفاً ، وأن يكوى جلده بالسياط ، وأن يساق مقيداً مغلولا يثقله الحديد ، لا لشىء إلا لأنه لا يخوض فى أمر مما كان يخوض فيه المأمون والذين ارتضاهم صفوة له من العلماء ، وإنا نفصل الكلام فى هذه المحنة فيما يلى :

المحنة وأسبابها وأدوارها

٤٥ — سبب هذه المحنة دعوة المأمون للفقهاء والمحدثين أن يقولوا مقالته فى خلق القرآن ، فيقولوا إن القرآن مخلوق محدث ، كما يقول أصحابه من المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه ، وصفوته الذين جعلهم بمنزلة نفسه ، وجعل منهم شعارة ودثاره .

ولا نفصل هنا رأى أحمد فى هذه القضية ، لأن رأيه قد اختلف فيه العلماء من بعده ، فلنرجئه إلى موضعه من دراسة آرائه ، وإنما الذى يتأكده العلماء أن أحمد لم يوافق المأمون فى رأيه ، ولم ينطق بمثل مقالته ، وأنه نزل به الأذى الشديد لذلك ، وابتدأ فى عصر المأمون ، وتوالى فى عصر المعتصم والواثق بوصية من المأمون ، واتباعاً لمسلكه ، فلنكتف فى هذا الموضع ببيان هذه المحنة ، ثم بمخاطبة أحمد للولاة والخلفاء ، لأننا الآن فى صدد سرد أدوار حياته .

٤٦ — وإذا كان سبب المحنة هو أن المأمون أراد أن يحمل أحمد على أن يقول مقالته فى خلق القرآن ، فلنفصل بعض التفصيل قول المأمون هذا ، ومن سبقه إليه من العلماء ، أو أصحاب الفرق .

يروى أنه أول من قال إن القرآن مخلوق الجعد بن درهم فى العصر الأموى ، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بالكوفة ، وقد أتى به مشدوداً فى الوثاق عند صلاة العيد ، فصلى خالد ، وخطب ، ثم قال فى آخر خطبته :

« اذهبوا ، وضحوا بضحاياكم ، تقبل ، فإنى أريد أن أضحى بالجعد بن درهم ، فإنه يقول ما كلم الله موسى تكليما ، ولا اتخذ الله ابرهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً [1] » ثم نزل وقتله .

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان ، وقد نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى ، تنزيهاً له عن الحوادث وصفاتها ، وحكم لذلك بأن القرآن مخلوق ، وليس بقديم .

---

(١) سرح العيون ص ١٨٦ .

ولما جاء المعتزلة ، ونفوا صفات المعانى ، ثم بالغوا ، فأنكروا أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلما ، وما ورد فى القرآن من أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليما أولوه بأنه سبحانه وتعالى خلق الكلام فى الشجرة ، فهم لا يصفون الله بأنه متكلم ، ولكنهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يخلق الكلام ، كما يخلق كل شىء ، وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى .

ولقد خاض المعتزلة فى حديث خلق القرآن خوضاً شديداً فى العصر العباسى ، وشاركهم بعض قليل من الفقهاء ، فقد كان بشر بن غياث المريسى من المصرين على ذلك القول ، وقد نهاه أبو يوسف أستاذه وصاحب أبى حنيفة فلم ينته ، فطرده من مجلسه .

ولقد ابتدأ خوض المعتزلة يشتد فى عهد الرشيد ، فأخذوا يدعون الناس إلى ذلك ، ولكن الرشيد لم يكن ممن يشجعون الخوض فى العقائد ، والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة ، ولذلك لم يشجع المعتزلة على ذلك الخوض ، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة ، ولما بلغته مقالة بشر بن غياث قال : « إن أظفرنى الله به أقتله » فظل بشر مستخفياً طول خلافة الرشيد .

٤٧ — فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة ، وكان جل حاشيته من رجالهم ، وأدناهم هو اليه ، وقربهم زلفى نحوه ، وأكرمهم أبلغ الإكرام ، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطى من أئمة المعتزلة تحرك له ، حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس .

والسبب فى ميل المأمون للمعتزلة ذلك الميل أنه كان تلميذاً لأبى الهذيل العلاف فى الأديان والمقالات ، وأبو الهذيل من رؤوس المعتزلة .

ولما عقد المأمون المجالس للمناظرات والمناقشات فى المقالات والنحل كانوا الفرسان السابقين فى الحلبة ، والبارزين على الخصوم ، لما اختصوا به من دراسات عقلية واسعة ، فكان لذلك لهم الأثر الكبير فى نفس المأمون ، يجتبى منهم من يشاء

لصحبته ، ويختار منهم من يريد لوزارته ، وخص منهم أحمد بن أبى دؤاد بالرعاية والعطف والتقريب ، حتى أنه أوصى أخاه المعتصم باشراكه معه فى أمره ، وقال له فى وصيته :

« وأبو عبد الله بن أبى دؤاد ، فلا يفارقك ، وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك[1] » .

فلما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له إعلان قوله فى خلق القرآن ، نشراً لمذهبهم ، وليكتسبوا بذلك إجلال العامة واحترامهم ، وصادف ذلك هوى فى نفسه فأعلن ذلك سنة ٢١٢ هـ ، وناظر من يغشى مجلس مناظرته فى هذا الشأن ، وأدلى فيها بحججه وأدلته ، ترك الناس أحراراً فى عقائدهم ، لا يحملون على فكرة لا يرونها ، ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض فى شأنها .

٤٨ — ولكن فى سنة ٢١٨ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن فأراد أن يحملهم على ذلك قهراً ، وابتدأ ذلك بارسال كتبه ، وهو بالرقة إلى إسحاق بن ابرهيم نائبه فى بغداد بامتحان الفقهاء والمحدثين ، ليحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق .

ويظهر أنه ابتدأ بحمل الذين لهم شأن فى مناصب الدولة ، والذين يتصلون بالحكام بأى نوع من أنواع الاتصال ، ولو كانوا شهوداً فى نزاع يفصل فيه القضاء ، فقد جاء فى آخر أول كتاب أرسله إلى نائبه فى بغداد :

« فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيمن قلده واستحفظه من رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ، ويقينه ، فاذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك شهادة من لم يقر أنه

(١) تاريخ الطبرى ،

مخلوق محدث ، ولم يره ، والامتناع عن توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد [١] »

وترى من هذا أنه لم توضع عقوبة لمن لم يعتقد هذه العقيدة سوى الحرمان من مناصب الدولة ، أو عدم سماع شهادته إن كان شاهداً ولم يعد كتابه الثانى ذلك ، فأحضر إسحاق بن ابراهيم القضاة ، واختبرهم ، ولم يكتف بذلك بل أحضر المحدثين أيضاً ، وكل من تصدى للفتوى والتعليم والارشاد ، وامتحنهم ، وأرسل إجابتهم عن مسألته فى خلق القرآن إلى المأمون [٢] فأرسل هذا كتابا يبين سخف هذه الأجابات فى نظره ، ويجرح المجيبين ، ويسلقهم بقارص القول وعنيف الكلام ، ثم ذكر فى هذا الكتاب عقوبات لمن لم يقل مقالته ، إذ أمر بحمل من لم يقل إليه موثقاً ، وقال : « من لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ، ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدى [٣] ؛ فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، وتسليمهم إلى من يؤمن بتسليمهم ، لينصهم أمير المؤمنين ، فأن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

٤٩ — وترى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان من المناصب ، وقبول الشهادة إلى الأنذار بعقوبة الأعدام .

وقد سارع اسحاق بن ابراهيم إلى تنفيذ رغبته ، فأحضر المحدثين ، والفقهاء ، والمفتين ، وفيهم أحمد بن حنبل ، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة ، والعذاب العتيد ،

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) سننقل لك قريبا هذه الأجابات ، ورد المامون عليها .
(٣) قد خصهما فى كتابه بالقتل إن لم يقولا .

إن لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد ، أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم ، وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب .

ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم ، واطمأنوا إلى حكم الله ، وآثروا الباقية على الفانية ، لم يرضوا بالدنية فيما اعتقدوه فأصروا على موقفهم إصراراً جريئاً ، وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريرى ، وسجادة ، فشدوا فى الوثاق ، وكبلوا بالحديد ، وباتوا ليلتهم مصفدين فى الأغلال ، فلما كان الغد أجاب سجادة اسحاق فيما يدعوه إليه ، فخلوا عنه وفكوا قيوده ، واستمر الباقون على حالهم .

وفى اليوم التالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم ، فخارت نفس القواريرى ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، ففكوا قيوده وبقى اثنان ، الله معهما ، فسيقا فى الحديد ، ليلتقوا بالمأمون فى طرسوس ، وقد استشهد ابن نوح فى الطريق

والذين أجابوا طلب منهم أن يواجهوا المأمون أحراراً وقدموا كفلاء بأنفسهم ، ليوافوه بطرسوس كأخويهم .

٥٠ — وبيناهم فى الطريق نعى الناعى المأمون ، ولكنه عفا الله لم يودع هذه الدنيا من غير أن يوصى أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه فى القرآن ، ودعوة الناس إليه بقوة السلطان ، وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت على رأسه وبين واجب الاتباع ، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصى خلفه به ، فوصاه .

فقد جاء فى مطلع وصيته : « هذا ما أشهد عليه عبدالله بن هرون الرشيد أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد هو ، ومن حضره أن الله عز وجل وحده ، لاشريك له فى ملكه ، ولا مدبر لأمره غيره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ولا يخلو القرآن أن يكون شيئا له مثل كل شىء ، ولا شىء مثله تبارك وتعالى وجاء فى وسط الوصية : « يا أبا اسحاق ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن » .

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون ، بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها

وكانت شراً مستطيرا على المتوقفين من الزهاد والعلماء ، والفقهاء ، والمحدثين ، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل .

٥١ — فقد بلغ البلاء أشده ، والمحنة أقصاها فى عهد المعتصم ، ثم فى عهد الواثق ، وقبل أن نبين ذلك ننقل المراسلات التى جرت بين المأمون ، ونائبه فى بغداد ، ففيها حجته فيما يقول ، ويدعو اليه ، وفيها إجابة أحمد ثم تهديد المأمون وها هى ذى الكتب ، كما جاءت فى تاريخ الطبرى .

كتاب المأمون الأول

إلى اسحاق بن ابراهيم نائبه فى بغداد

(أما بعد) فأن حق الله على أئمة المسلمين ، وخلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والأقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامة ممن لا نظر له ، ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، تضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويحدثه ، ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : « إنا جعلناه قرآناً عربيا » فكل ما جعله الله ، فقد خلقه ، وقال : « الحمد لله الذى

خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » ، وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال : « الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وكل محكَم مفصَّل دخله محكِم مفصِّل ، والله محكم كتابه ومفصِّله ، فهو خالقه ، ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ، ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق ، والدين ، والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزينا بذلك عندهم ، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دخل دينهم ، وثقل أديمهم ، وفساد ديانتهم ، ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى اليها جروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه . أولئك الذين أصمهم الله ، وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، لسان ابليس الناطق فى أوليائه ، والمائل عن أهوائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فأنه لا عمل إلا بعد يقين ، وإلا بعد استكمال حقيقة الاسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من الأيمان به وتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله ، والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه

من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن ، وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتنقد آثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله .

كتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ

الكتاب الثانى

وكتب المأمون إلى اسحق بن ابراهيم فى أشخاص سبعة ، منهم محمد بن سعد الواقدى ، وغيره ، فأشخصوا اليه ، فامتحنهم ، وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا إن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره ، فشهر أمرهم ، وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم ، وكان ما فعل اسحاق بن ابراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى اسحق بن ابراهيم .

(أما بعد) فأن من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لأقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعد له

فى بريته أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ويدلوا عليه تبارك وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود ايمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ، ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعاً لفنون مصالحهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه وبما أسلفوا وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله ، وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم ، واشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، والذى بان به من خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأولويته التى لا يبلغ أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودا لا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى إدعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » وتأويل ذلك : « إنا خلقناه » ، كما قال تعالى : « وجعل منها زوجها ، ليسكن إليها » وقال : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » وقال « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » وقال : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » وقال : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا

أو كذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ثم كذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : «قل من أنزل الكتاب الذى جاء موسى نورا» فسمى الله تعالى القرآن ذكرا ، وإيمانا ، ونورا ، وهدى ، ومباركا عربياً ، وقصصا، فقال: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن» وقال: « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بهذا القرآن لا يأتون بمثله » وقال : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » وقال : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه » فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام، واعترفوا بالتبديل والألحاد فى قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه ، والأشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الايمان اليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ، ولاعدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ، ولا حكاية ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فأن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به اليك ، وانصصهما عن علمهما فى القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد إلا لمن يقر بأن القرآن مخلوق ، فأن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وان ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من

القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

٥٢ — هذان هما الكتابان الرسميان اللذان صدرت عنهما المحنة ، وقد أخذ اسحق بن ابرهيم فى الامتحان عقب وصول الكتاب الأول ، وتم الامتحان عقب صدور الكتاب الثانى ، ويحسن أن نبين كيف كانت الأجابة ثم تعليق المأمون أو بعبارة أدق احمد بن أبى دؤاد عليها ، ثم نبين المحنة المادية بعد ذلك .

٥٣ — أحضر اسحق للامتحان جماعة من الفقهاء ، والحكام ، والمحدثين ، فأحضر أبا حسان الزيادى ، وبشر بن الوليد الكندى ، وعلى بن أبى مقاتل بن غانم والذيال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريرى ، واحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطى ، وعلى بن الجعد ، واسحاق بن أبى اسراءيل ، وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضى الرقة ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعى ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن شميل ، وابن على بن عاصم ، وأبو العوام البزاز ، وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن اسحق ، فادخلوا جميعا على اسحاق

وابتدأ الامتحان بقراءة كتاب المأمون هذا عليهم مرتين ، حتى فهموه ، ثم أخذ فى القاء الأسئلة

قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فقال : أقول القرآن كلام الله . قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟ قال الله خالق كل شىء . قال القرآن شىء ؟ قال هو شىء . قال فمخلوق ؟ قال ليس بخالق . قال ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك . وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ماقلت لك .

فأخذ اسحق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : اشهد أن لا إله إلا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شىء ، ولا بعده شىء ولا يشبهه شىء

من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه . قال نعم . وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل ما تقول ياعلى ؟ قال سمعت كلامى لأمير المؤمنين غير مرة ، وما عندى غير ماسمع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال له القرآن مخلوق قال القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء ، سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته

ثم قال للذيال نحوا من مقالته لعلى بن أبى مقاتل . فقال له مثل ذلك

ثم قال لأبى حسان الزيادى ماعندك ؟ قال سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعه ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال من لم يقل هذا القول ، فهو كافر . فقال القرآن مخلوق هو ؟ قال القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ومادون الله مخلوق . وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وان نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال إن هذه مقاله أمير المؤمنين قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به ، فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء ، فأن أبلغتنى عنه بشىء صرت اليه ، قال ما أمرنى أن أبلغك شيئا قال على بن أبى مقاتل ، قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان ما عندى إلا السمع والطاعة ، فهل آتمر قال ما أمرنى أن آمرك ؛ وإنما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد إلى احمد بن حنبل ، فقال ما تقول فى القرآن ؛ قال هو كلام الله قال أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله ، لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ؛ فلما أتى إلى لا يشبهه شىء فى خلقه فى معنى من المعانى ؛ ولا وجه من الوجوه . قال أقول ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال

أصلحك الله . انه يقول سميع من أذن ، بصير من عين . فقال اسحاق لأحمد ابن حنبل ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال هو كما وصف نفسه . قال فما معناه ؟ قال لا أدرى، هو كما يصف نفسه .

ثم دعا بهم رجلا رجلا ، كلهم يقول القرآن : كلام الله ، ألا هؤلاء النفر قتيبه وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عليه الأكبر ، وابن البكاء وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منبه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشيء منه ، إلا أنه دس فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابن الاحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فأنه قال . القرآن مجعول لقول الله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربيا » والقرآن محدث لقوله « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » قال له اسحق فالمجعول ، مخلوق ؟ قال نعم ، قال فالقرآن مخلوق ؟ لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول ، وكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر ، فقال أصلحك الله إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما ، فاعادا الكلام .

قال له إسحاق هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لتحكى ذلك عنهما . قال له اسحاق ان شهدت عندهما بشهادة ، فستعلم مقالتهما ، ان شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ، ووجهت إلى المأمون فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب اسحاق بن ابراهيم فى أمرهم وها هو ذا :

الكتاب الثالث

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة ، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم ، واحلالهم محالهم

تذكر احضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث

وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا لكتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم إعتقادهم فى القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالأمساك عن الحديث والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك إلى السندى وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى الماضيين بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث الكتب إلى الفضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت ، وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً ، كما هو أهله ، ويسأله أن يصلى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرغب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، وما رجع إليك فيه كل امرىء منهم ، وما شرحت من مقالتهم .

« فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك ، وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره ، عهد ولا نظر ، أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانصصه عن قوله فى القرآن ، واستتبه منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقاله الكفر الصراح ، والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فاشهر أمره ، وإن أصر على شركه ، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه ، إن شاء الله ، وكذلك إبراهيم بن المهدى ، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ ، فإن قال إن القرآن مخلوق ، فاشهر أمره ، واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه ، إن شاء الله .

وأما على بن أبى مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين : إنك تحلل وتحرم والمتكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره .

وأما الذيال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس مايشغله ، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ومحتذياً سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ، وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العرام ، وقوله إنه لايحسن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبى فى عقله ، لافى سنه ، جاهل ، وإنه إن كان لايحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه ، إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل ، كان السيف من وراء ذلك ، إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة ، وسبيله فيها ، واستدل على جهله ، وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونقله إلى غيره .

وأما الزيادى ، فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دعى كان فى الإسلام ، خولف فيه حكم رسول الله صل الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزيادة أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور .

وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره

وأما الفضل بن الفرخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تربصاً بمن استودعه ، وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إياه ، وهو معتقد للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبي معمر ، فأعلمه أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم ، إلا لإرباءهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا ، وصاروا للنصارى مثلا .

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من مال علي بن هشام ، وأنه من الدينار والدرهم دينه .

وأما سعدويه الواسطي فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث ، والتزين به ، والحرص على طلب الرياسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها : متى يمتحن ، فيجلس للحديث . وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى ، وحكه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ، إن كان شاهدهما وجالسهما .

وأما القواريري ففيما تكشف من أحواله : وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه ، وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن يتولى لجعفر بن عيسى الحسني مسائله ، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه ، وترك الثقة به ، والاستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف ، وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم ، فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه ، وإنه ببعد صبي يحتاج إلى تعليم ، وقد كان أمير المؤمنين ، وجه إليك المعروف بأبي مسهر ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن ، فجمجم عنها ، ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميما ، فانصصه عن إقراره ، فإن كان مقيما عليه ، فاشهر في ذلك وأظهره إن شاء الله ، ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ، ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ،

وابراهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم إليه ، لينصبهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به ، تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أتاك من أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين مايعملونه ، إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ ﻫ .

٥٤ — هذه هى الكتب ، وهل نترك المأمون ، وصنيعه ، وإلحافه فى الاختبار ، ثم تدرجه من الامتحان إلى الايذاء والاهانة ، ونقل العلماء فى مهابة وذلة مغلولين مقيدين ، يثقلهم الحديد ، حتى يموت شهيدا فى الطريق من يضعف جسمه عن الاحتمال ، وبقى أحمد ، إذ فى جسمه قوة ، وفى نفسه عزيمة ، وفى قلبه إيمان ، وفيه صبر وجلد ، ثم وصيته بعد ذلك باستمرار الأذى — هل نتركه من غير أن نتعرف الحامل عليه ، والباعث له على أن يركب ذلك المركب الصعب ؟ لا بد من تعرف سبب ذلك ، حتى نعذر إليه ، ولقد أنصف التاريخ أحمد ، ورفعه إلى مرتبة الأبدال بل اندفع فى المغالاة بعض مريديه ، فجعلوه من القديسين ، وقال قائلهم : « لو كان فى بنى اسرائيل لكان نبيا » .

٥٥ — ولا نجد السبب الذى دفع المأمون مستورا ، حتى نكشفه ، ولا مبهما حتى نبينه ، بل إن التاريخ ذكره ، والكتب التى نقلناها لك ، والملابسات التى أحاطتها ، ولغة كتابها تدل على الباعث ، وعلى من حرضه ، حتى تحمل كبر هذا الأذى .

إن المأمون قد استوزر أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى ، وجعله كاتبه ، وصاحب السلطان فى دولته ، وكانت له منزلة فى نفسه ، حتى أوصى أخاه من بعده أن يجعله فى منصبه ، لا يبعده ، والكتب التى كتبت واضح تماماً أنها بلغة أحمد بن أبى دؤاد ،

ففيها اسهاب وطول ، ولم يعرف أن الخلفاء إذا كتبوا بأنفسهم يسمون ذلك الأسهاب ، وترى التعبير فيها دائما عن الخليفة بلغة الغائب ، ولم يخطىء مرة ، ويكتبها بلغة المتكلم ، وفيها نزول إلى الطعن فى فتاوى هذا ، واستحلال ذلك الربا ، وكل هذا نجد مثل المأمون الحصيف مما يتسامى عنه ، وهل لنا أن نفرض أن هذه الكتب كتبت ، والمأمون مريض ، قد تضعضعت نفسه ، وأنه لهذا سوغ له ما كتب ، وأنه لو كان فى صحة وقوة ما سوغ أن يرسل باسمه كتاب يحوى طعنا فى هذا ، وكشفا عن ستر غيره ؛ إن ذلك لا يقع فيه أمثال المأمون الذين يتجهون إلى معالى الأمور ، ولا ينزلون إلى سفسافها ، فلا يتدلى إلى ذكر ما جاء فى كتابه ، إذا كان يحرره بنفسه أو يكون فى حال من القوة والعزم ، ودراسة الأمور عند التوقيع عليه إذا كان الكاتب غيره ، لذلك نرجح أنه لم يطلع عليها عند إرسالها ، وإن علم مضمونها ، أو اطلع عليها فى حال ضعف ، لا يملك السيطرة الكافية على أموره ، وما يعرض عليه من شئون ، ولذلك مات وشيكا من إرسال هذه الكتب .

٥٦ — وإننا إذا علمنا أن المأمون قد رأى ذلك الرأى ، وهو خلق القرآن منذ تولى الخلافة ، بل قبلها ، وكان يناقش فيه ، ويدعو إليه ، فى مجلس مناظراته ، من غير أن يكشف عن القلوب ، ويمتحن العقول ، وينزل البلايا ، فلماذا تحول ذلك التحول فى آخر حياته ، لماذا نقل المسألة إلى الابتلاء ؟ لاشك أنه أحمد بن أبى دؤاد كاتب هذه الكتب هو المحرض ، ولا بد أنه استغل حال ضعف نفسى فى المأمون ، فهو قد كتب الكتب بتلك اللغة ، وحرص على كتابتها متضمنة ما تضمنت من ابتلاء واختبار .

إن العاقل يرد عليه سؤال يحيره لماذا لم يتخذ المأمون ما اتخذ وهو ببغداد ، والعلماء جميعا حوله ، ولم يدع إلى الامتحان ، إلا وهو غائب عن بغداد ، بالكتب يرسلها ، ثم يكون ذلك قريبا من موته !! إنه سلطان أحمد بن أبى دؤاد الكامل ، قد اتخذ فيه اسم المأمون ، ولم تكن إرادة المأمون فى الأمر كاملة ، ولم يكن له قوته الحازمة ، إذ أنه وهو فى قوته الجسمية كان يناقش العلماء فى ذلك — السنين الطوال ، ولم ينقل

الأمر من المناقشة إلى الأذى والامتحان، مادام قويا وما دام فى بغداد ، إنه إذن أحمد ابن أبى دؤاد المسئول من كل الوجوه عن كبر هذا الأمر ، إن كان فيه إثم ، وتبعة المأمون أنه جعل حاشيته ، ومعاونيه من أصحاب المذاهب التى لا يأخذ بها الجمهور فى ذلك الوقت، ولكنه كان وهو فى قوته يجعل الأمر فى دائرة الاعتدال لا يعدوه .

٥٧ — وإذا حملنا أحمد بن أبى دؤاد كبر هذه الأمر ، فهل لنا أن نحكم أن مسلك ابن أبى دؤاد كان شراً لاشىء من الخير فيه ؟ وأن احمد بن حنبل كان موقفه من كل الوجوه صوابا لا مجال للخطأ فيه ؟

إن هذه قضية قد تعددت فيها جهات النظر ، ولكل جهة حكم خاص بها ، فمن جهة التقوى والإيمان والعزيمة وقوة الصبر والاحتمال ليس لنا إلا أن نقرر أن احمد بن حنبل كان بطلا من أبطال التاريخ الذين ابتلوا فأحسنوا البلاء ، وصبروا فى سبيل ما يعتقدون الصبر الجميل ، ولم يقبلوا الدنية فى دينهم ، ويؤثروا الفانية على الباقية ، فى سبيل ما يعتقدون .

ومن جهة الإحتياط للدين ، وصونه عن المقالات الفلسفية ومتاهات العقول ليس لنا إلا أن نحمد موقف أحمد ، لأنه كان لا يريد الخوض فى القضية لا سلباً ولا إيجاباً ، بل كان متوقفاً لا يبت برأيه ، بل إنه يرى أن هذا من المسائل التى لا يجمل بالمسلم الخوض فيها ، والتعمق فى دراستها ، لأنه لم يؤثر عن السلف كلام فى هذا ، وهو فى مسائل الدين كان رجلا أثريا لا يخوض إلا فيما خاض فيه السابقون ، ليهتدى بهديهم ، وليسلك مثل سبيلهم ، وسنبين رأيه فضل بيان عند الكلام فى آرائه .

ولكن إن نظرنا من وجهة الحكم فى القضية من حيث كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق ، فإن الأدلة التى ساقها ابن أبى دؤاد فى تلك الكتب ، والعقل والبداهة تحملنا على الحكم للمعتزلة بصحة نظرهم ، فإن القرآن ، وإن كان كلام الله مخلوق ، وهذا لا يمنع أن صفة الكلام قديمة بقدم الله سبحانه وتعالى، كما أن خلق الله سبحانه وتعالى بقدرته ، وقدرة الله قديمة ، وكونه خلق الخلق بهذه القدرة لم يستدع قدم الخلق ، فلذلك كون القرآن تكلم الله به ، وخاطب نبيه محمداً به ، وأنزله عليه بقدرته ، وبصفة

الكلام التى وصف نفسه بها ، لا يستدعى أن يكون القرآن قديماً .

٥٩ — وإن سلمنا لأحمد بن أبى دؤاد ، وللمعتزلة عامة بصواب نظرهم فى هذه القضية ، فهل نسلم لهم مسلكهم فى إنزال الأذى بمخالفيهم ، وخصوصاً أهل التقى والفضل ، ونسلم لهم أن يمتحنوا الضمائر ، ويكشفوا السرائر ؟ إن ذلك هو موضع النقد ، انتقده الناس عليهم قديماً ، فى عصر أحمد ، حتى انتقده بعض من كانوا يرون مثل رأيهم ، وحتى اضطر الجاحظ المعتزلى الذى كان يعاصر أحمد ، إلى الدفاع عن ذلك ، فقال فى إحدى كتاباته فى الدفاع عن الابتلاء ، وكشف السرائر ، والتكفير والاضطهاد :

« وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسسا لكان الفاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تتبعاً لعورة »[1]

وهذه القضية ليست صادقة ، فهم لم يخصوا بامتحانهم أهل التهمة ، بل عمموا ، حتى نزلت بأكبر أهل الفضل ، فهل كان مثل أحمد متهماً فى دينه ، فإنه إذا كان مثل أحمد من أهل التهمة ، فلا دين ، ولا تدين ، وعلى الدنيا العفاء ، لذلك لم يكن لمثل كلام الجاحظ قول فى هذا المقام .

وإذا كان الأمر كذلك فليس الاضطهاد والأذى صواباً ، ولا مبرر له فى نظرنا ، ولكن أكان الذين فعلوا ذلك لم يكن لهم أى مبرر ، وإن كنا لا نوافق عليه ، وهل لنا أن نحكم بأن أولئك العلماء ارتكبوا ما ارتكبوا لمحض الكيد والأذى من غير باعث ، وإن لم يكن قوياً يبرر الأذى والانتقام ؟

هذا هو السؤال الذى يضطرب فى النفس « ولا يجد الإنسان الجواب القاطع عليه ، وإذا لم يكن الجزم القاطع بالسلب أو الإيجاب له طريق قريب أو بعيد ، فلم يبق إلا أن نتعرف بطريق الظن ، وقد يهدينا إلى أمر راجح ، وإن أسباب الترجيح بين أيدينا ، فأن عدمنا سبب اليقين ، لم نعدم سبب الظن الراجح ،

---

(١) الفصول المختارة من كتب الجاحظ لعبيد الله بن حسان .

لقد جاء فى أحد كتب المأمون ، أو بالأحرى كتب أحمد ابن أبى دؤاد ، فى إثبات بطلان قول من قالوا إن القرآن قديم : « وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله » وإن هذا القول يدل على أن المأمون والمعتزلة معه ، قد رأوا أنه فى ادعاء أن القرآن قديم ، وقرار ذلك فى نفوس العامة ينتهى بالحكم بتعدد القدماء ، ثم جسم له الخيال أن ذلك ينتهى إلى تعدد الآلهة فى العبادة ، وأن ذلك إشراك بالله سبحانه وتعالى ، وأن المثل فى ذلك قائم حى ، وهو أن النصارى حكموا بقدم عيسى عليه السلام ، ثم عبدوه ؛ فلما رأى المعتزلة ، ومعهم المأمون فشو ذلك القول عند العامة أو حشو الأمة كما قال فى كتابه ، وزين ذلك لهم الفقهاء والمحدثون ، وأهل التقوى عندهم ، هالهم الأمر ، وظنوا ذلك يؤدى إلى ضلال الأمة ، كما ضل من قبل النصارى فى عبادتهم عيسى عليه السلام ، ولم يجدوا السبيل لذلك إلا أن يحملوهم على الحق بقوة السلطان بعد أن عجزوا عن حملهم عليه بقوة البيان .

إن هذا السبب واضح من كتبهم ، وهو باعث لعل فيه بعض الإخلاص ، ويقوى هذا أن المعتزلة الذين تمرسوا بالرد على الذين هاجموا الإسلام من قبل ، وجدوا كما جاء فى رسالة النصارى للجاحظ المعتزلى أن الكائدين للإسلام يرتضونه ، ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدثين الذين يروجونها عند العامة ؛ لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام لله قديم سبيلا لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم ، وتكون تلك الحجة من الكتاب الكريم ؛ إذ فيه أن المسيح كلمة الله ، وكل كلام لله قديم ، وكلمة الله قديمة ، فالمسيح قديم

ولعله مما جال بخاطر أولئك المعتزلة أن ترويج فكرة قدم القرآن باعتباره كلام الله سبحانه وتعالى ـ فكرة مسيحية دست بين الجماهير الإسلامية فيما كان يدس فيهم من أفكار ، وقد تلقاها الجمهور بالقبول ، لما فيها من تقديس للقرآن الكريم .

وإن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ، ويؤلمهم أن يدخل المسيحيون فى دين الله أفواجاً أفواجاً ، كانوا يثيرون أفكاراً بين المسلمين ، ويتخذون من هذه الأفكار حججاً لهم يجادلون بها عن دينهم .

فقد جاء كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقى الذى كان فى خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبدالملك أنه كان يلقن بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين ، فيقول : « إذا سألك العربى : ما تقول فى المسيح ؟ فقل إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم ، فأنه سيضطر إلى أن يقول إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فإذا أجاب بذلك ، فاسأله عن كلمة الله وروحه ، أمخلوقة أم غير مخلوقة ، فان قال مخلوقة ، فليرد عليه بأن الله كان ، ولم تكن كلمة ولا روح فأن قلت ذلك ، فسيفحم العربى ؛ لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين »

٦١ — إن هذا لم يكن خافيا عن أعين المعتزله الذين كانوا يجادلون أهل الديانات الأخرى والزنادقة ، فهم يعلمون أن من يقول القرآن قديم يمد النصارى بحجة يجادلون بها ، وأن من الواجب ألا يقال هذا القول ؛ لأنه يعطى للخصوم حجة على الاسلام ، ويفتح الثغرة لمن ينالون منه ، وليس هو الحق فى ذاته ، ومن قاله فقد ضاهى قول النصارى فى المسيح ، وحكم بتعدد القدماء ، وجعل القرآن الذى ينطق به الناس قديما كشأن الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان ذلك نظر المعتزلة فيما نظن ، وهو نظر عميق سليم يحتاط للوحدانية ويحتاط للأسلام ، فهو موقف لا يخلو من النبل ، وهو إيمان سليم ، فإذا كان أحمد ابن حنبل يحتاط لدينه ، فلا يخوض فى شىء لم يخض فيه السلف الصالح ، فأولئك أيضاً يحتاطون لدينهم ، فيسدون الأبواب بالحق لكل من يريد بالاسلام كيدا فلم يكونوا خارجين على الدين ، إذ دعوا بدعايتهم ، وقد كان الأولى ألا يخاض فى هذه المسألة قط ، كما يروم أحمد ، ولكن الذين لا يريدون بالاسلام خيرا أذاعوا هذا ، ونشروه ، فحق على المسلم أن يذكر الحقيقة كما هى ، ويحميها ، ويدعو إليها .

٦٢ — إلى هنا قد أنصفنا أحمد بن أبى دؤاد والمعتزلة من حيث الرأى ، ولكنا من حيث العمل نجدهم قد اشتطوا وغلوا غلوا كبيرا ، وحسبهم من الغلو أن ينزلوا سوط العذاب بالتقى النقى الطاهر احمد بن حنبل ، وأن يوغلوا فى إيذائه

وأن يزج فى السجن ، ولقد نزل البلاء واشتد ، حتى أصبح الناس لا ينظرون اليها على أنها مغالبة رأى برأى ، ولا على أنها إثبات تنزيه الله سبحانه وتعالى ، بل على أنها محنة قاسية نزلت بالاسلام والمسلمين ، وأئمة الهدى والدين ، وأنها تفتيش عن القلوب والضمائر ، واختبار للنفوس والسرائر ، فأبعد المخطىء فى خطئه ، وظنوا الخير فيه ، والشر فيما يدعوهم السلطان إليه ، وانتهى الأمر بأن الآراء التى تؤيد بالقوة والتعذيب لا يكون لها الغلب ، ولو كانت محض الحق المبين ، وكلما زادوا فى المحنة زاد الناس للمتحنين إجلالا ، ولفكرهم اتباعا ، وقالوا لو كان خيرا ما يدعون إليه ما كان العذاب سبيله ، والسجن والتقييد طريقه .

٦٣ — مات المأمون واحمد قد سيق إليه مقيدا بالأغلال ، ومصفدا بالحديد ، ولكن موته لم ينه المحنة ، بل ابتدأت تأخذ دورا أقسى وأشد وأحد ، وأعم ، ذلك أنه ضمن ما أوصى به أخاه المعتصم أمرين (أحدهما) وصية بالاستمساك بدعوته فى مسألة خلق القرآن ، (وثانيهما) وهو الأشد ، الاستمساك بأحمد بن أبى دؤاد ، ذلك أن احمد هذا هو صاحب الفكرة فى حمل الناس على ذلك القول بقوة السلطان ، وعنف الامتحان ، وانزال البلاء ، والسجن ، والتقييد ووضع الأغلال .

وإن المعتصم لم يكن رجل علم ، بل كان رجل سيف ، لا يضعه عن عاتقه ، فترك أمر خلق القرآن لابن أبى دؤاد يدبر الأمر فيه ، لينفذ وصية المأمون فى ذلك .

وقد تبين أن احمد بن حنبل كان مقيدا مسوقا عندما مات المأمون ، فأعيد إلى السجن ببغداد ، حتى يصدر فى شأنه أمر ، ثم سيق إلى المعتصم ، واتخذت معه ذرائع الاغراء والارهاب ، فما أجدى فى حمله ترغيب ، ولا ترهيب ، فلما لم يجد القول رغبا ورهبا ، نفذوا الوعيد ، فأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى ، ولم يترك فى كل مرة ، حتى يغمى عليه ، وينخس بالسيف ، فلا يحس ، وتكرر ذلك ، مع حبسه نحوا من ثمانية وعشرين شهرا ، فلما استيئسوا منه ، وثارت فى نفوسهم بعض نوازع الرحمة أطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته وقد أثخنته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح المتوالى ، والالقاء فى غيابات السجن .

٦٤ — استقر احمد فى بيته ، بعد أن عاد إليه لا يقوى على السير ، وقد انتصر بتقاه ، وانهزم غيره ، وإن كانوا الأقوياء ، واستمر احمد منقطعا عن الدرس والتحديث ريثما التأمت جراحه ، واستطاع أن يخرج إلى المسجد ، فلما رد الله إليه ثوب العافية ، وذهبت وعثاء هذه المحنة عن جسمه ، وإن كانت قد تركت آثارا وندوبا فيه ، وأوجاعا فى بعض أجزائه ومكث يحدث ، ويدرس بالمسجد ، حتى مات المعتصم ، فلما تولى الواثق ، أعاد المحنة على احمد ، ولكنه لم يتناول السوط ويضرب احمد كما فعل المعتصم ؛ إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس ، وزاد فكرته ذيوعا ، ومنع دعوة الخليفة أن تذيع وتفشو ، فوق ماترتب على ذلك من سخط العامة ، ونقمة ما سماهم ابن أبى دؤاد حشو الأمة ، فأن العاقل يحسب لنقمتهم حسابا ، ولذلك لم يرد احمد بن أبى دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمى ، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس ، وقال الواثق له : « لاتجمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الامام احمد مختفيا ، لايخرج إلى صلاة ، ولا غيرها ، حتى مات الواثق .

وبذلك انقطع احمد عن الدراسة مدة تزيد على خمس سنوات إلى سنة ٢٣٢ ثنتين وثلاثين ومائتين ، وبعدها عاد إلى الدرس والتحديث مكرما عزيزا ترفعه عزة التقى ، وجلال السن ، والقناعة والزهادة ، وحسن البلاء .

٦٥ — ومن حق التاريخ أن نقول إن المحنة لم تكن مقصورة على احمد وإن كان احمد قد سبقهم إلى الصبر ، بل تجاوزته إلى غيره ؛ وكان الفقهاء يساقون من الأمصار إلى بغداد ، ليختبروا فى هذه المسألة ، ويفتش عن خبايا قلوبهم ، وممن نزل به من ذلك يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الامام الشافعى ، فقد دعى إلى أن يقول إن القرآن مخلوق ، فامتنع ، فحمل مقيدا مغلولا ، حتى مات فى أصفاده محتسبا ذلك ربه ، ومنهم نعيم بن حماد ، فقد مات فى سجن الواثق مقيدا لذلك .

وقد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى ، حتى سئم الناس هذه الحال ، بل حتى سئمها القائمون بها ، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس ، يروى أنه دخل عبادة المضحك على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن ، قال ويلك ، القرآن يموت ، قال يا أمير المؤمنين ، كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين بم يصلى الناس

التراويح ، فضحك الواثق ، وقال : قاتلك الله ، أمسك .

ويروى الدميرى فى كتاب حياة الحيوان أن الواثق رجع فى آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لا يرى هذا الرأى ؛ إذ دخل عليه شيخ ممن نزلت به المحنة ، فقال فى ضمن مجادلته مع ابن أبى دؤاد .

« شىء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ولا عثمان ، ولا على ، تدعو أنت الناس إليه ، ليس يخلو أن تقول علموه ، أو جهلوه ، فان قلت علموه ، وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ماوسع القوم ، وإن قلت جهلوه ، وعلمته أنت ، فيالكع ابن لكع ، يجهل النبى ﷺ ، والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئا وتعلمه أنت ! ! »

فلما سمع الواثق ذلك ، وثب من مجلسه ، وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعفا عن الشيخ ، ورجع عما كان يفعل ، كما روى ابنه المهدى .

٦٦ — هذا تفصيل ذلك الامتحان الخطير القاسى الذى عكر حياة ذلك الامام الورع التقى ، وأزعج هدوء تلك النفس القارة المطمئنة ، ودام نحوا من أربع عشرة سنة ، تراخى عنه العذاب والتنكيل والاضطهاد فى نصفها واستمر فى سائرها .

وقد يقول قائل أما كان الأولى بذلك الرجل التقى أن يتخذ التقية فيما كانوا يريدون ، وقد دعى إلى ذلك ، وقد دعاه بعض معاصريه أن يأخذ بمبدأ التقية ، وهى أن يظهر شيئا لا يعتقده ، وقاية لنفسه من التلف .

ولكنه رفض حيث سلك مسلكه كثيرون ، وتأبى ، حيث تنزل عن فكرته فيما يظهر غيره ، ونحن وإن كنا لا نرى ذلك التوقف عن الحكم بخلق القرآن مع اجلالنا لمقام احمد ، وورعه ، واحتياطه لدينه — نجد أن الأخذ بالتقية فى دار الاسلام لا يصح ؛ لأن المنكر فى دار الاسلام يجب استنكاره ، وإلا تحولت صفتها ، ولم يعد لها اسمها ، وإن الاستنكار له مراتب ، والتقية تكون حيث لا يكون للاسلام قوة وسلطان ، كبلاد يضطهد الاسلام فيها ، ولا سبيل للمسلم فى الخروج منها ، فيستخفى بدينه ، وتلك رخصة رخصت له تيسيرا وتسهيلا ، وكل نفس وما تطيق .

ولأن التقية لا تجوز من الأئمة الذين يقتدى بهم ، ويهتدى بهديهم ، حتى

لا يضل الناس ، لأنهم إن نطقوا بغير ما يعتقدون ، وليس للناس علم ما فى الصدور ، اتبعوهم فى مظهرهم ، ويظنون أنه الحق الذى ارتضوه دينا ، وبذلك يكون الفساد عاما ، ولا يخص ، وحق على الامام أن يكون الممتحن المبتلى ، فتنتشر الفكرة السليمة ، ويكون الابتلاء سبيل نشرها وذيوعها.

لذلك نحن نرى أن صبر الامام احمد كان هو الأولى به والأجدر والأحمد له ولفكرته ، وإن كنا نرى غيرها . هذا وسنمحص فى بيان آراء احمد حقيقة فكرته فى هذا المقام .

معيشة أحمد وبيته

٦٧ — سردنا حياة احمد العلمية ، فذكرناه طالبا للعلم والحديث يتنقل فى الأقاليم الاسلامية ، وشاديا فى العلم ، وعالما قد جلس للدرس والتحديث ، وإماما يقتدى به ، ويسلك سبيله ، وذكرنا تلك الرياح العاتية القاسية التى عرضت لنفس احمد فى حياته العلمية ، فأزعجتها ، وفصلنا القول فى ذلك تفصيلا .

ولم نتعرض لموارد رزق احمد كيف كانت معيشته ، أكان فى بسطة من العيش أم كان يعيش عيشة القل أو الكفاف ، وما كان مورد رزقه ؟ سواء أكان قليلا أم كثيرا ؟ ثم أكان يقبل هدايا الخلفاء ويستطيبها كما كان يفعل مالك وأبو يوسف ، ومحمد ، أم كان يتعافاها كأبى حنيفة ، أم كان بين ذلك قواما كما كان يفعل الشافعى رضى الله عنه ؟

هذه أسئلة تتقاضانا أن نجيب عنها ، وأن نبينها بايجاز ، ولذلك سنتكلم فى حاله ومورد رزقه ، ثم ما كان منه بالنسبة لهدايا الخلفاء ، ومن يتصل به قبل المحنة وبعدها .

٦٨ عاش احمد فقيرا مكدودا محدودا ، ولم يعش مجدودا ذا مال وفير وكان يؤثر الخصاصة على أن يكون ذا مال لا يعرف أنه حلال خالص ، أو يكون فيه منة العطاء ، وكثيرا ما كانت تضطره حاله أن يعمل بيديه ليكسب ، أو أن يؤجر نفسه فى عمل يعمله إذا انقطع به الطريق ، ولم يكن معه مال ، وكان يؤثر ذلك على أن يقبل عطاء ، فان العطاء فى مثل هذه الشده ، وممن يعجز عن مكافأته فى زمن قريب لا يستطيع أن يتحمله احمد العيوف الأبى ، وقد حرر بذلك نفسه ، وأتعب جسمه ، وتلك كانت حاله دائما ، عند ما يتردد بين تعب النفس ، وتعب الجسم .

٦٩ — كان أحمد يعيش من غلة عقار قد تركه له أبوه ، فقد جاء فى المناقب لابن الجوزى فى هذا المقام :

« كان أحمد رضى الله عنه قد خلف له أبوه طرزا ، وكان يأكل من غلة تلك الطرز ، ويتعفف بكرائها عن الناس » (١)

(١) جمع الطرز جمع طراز كـكتاب وكـتب ، والطراز الموضع الذى ينسج فيه الثياب فيظهر ان احمد ورث هذه الطرز فكان يستاجرها .

ويظهر أنه كانت له دكاكين يؤجرها ، فقد جاء فى حلية الأولياء مانصه :

« وقع من يد أحمد بن محمد بن حنبل مقراض فى البئر ، فجاء ساكن له ، فأخرجه ، فلما أن أخرجه ناوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم أو أقل أو أكثر ، فقال : المقراض يساوى قيراطا ، لا آخذ شيئا ، فخرج ، فلما كان بعد أيام قال له : كم عليك من كراء الحانوت ؟ قال كراء ثلاثة أشهر ، وكراؤه فى كل شهر ثلاثة دراهم ، فضرب على حسابه ، وقال أنت فى حل »

فهذه القصة فوق دلالتها على أن أحمد ما كان يحتمل منة ، وأنه كان يجزى عن المعروف أضعافا — تدل على أنه كان له حوانيت وأنها كانت تدر عليه غلة ، وان كانت لا تجعله فى بحبوحة من العيش تسد خلته ، وتدفع حاجته والأخبار متضاربة على أنها لم تكن كبيرة ، بل كانت ضئيلة ، ولقد ذكر ابن كثير مقدارها ، فقال :

« كانت غلته من ملك له فى كل شهر سبعة عشر درهما ، ينفقها على عياله ، ويتقنع بذلك رحمه الله صابرا محتسبا » وهذه غلة قليلة بلا ريب ، وسواء أصح ذلك المقدار الذى رواه ابن كثير ، أم لم يصح ، فالاخبار متضافرة على أنها كانت ضئيلة لا تكاد تكفى حاجته ، لولا فرط القناعة والصبر ، واستعداده لأن يطلب عيشه بالكد والتعب ، ولقد كان يحرص كل الحرص على أن يكون مورد رزقه حلالا من غير شبهة ، ولذلك يعلن أن ذلك العقار الذى كان يدر عليه ذلك الرزق المحدود يغلب على ظنه أنه ملكه عن ابيه حلال ، ولو ادعاه شخص لسلمه إليه ، ولذا جاء فى المناقب لابن الجوزى مانصه :

« سأل رجل أحمد بن حنبل عن العقار الذى كان يستغله ، ويسكن دار منه كيف سبيله عنه ، فقال له هذا هذا شىء قد ورثته عن أبى ، فإن جاءنى رجل ، فصح أنه له خرجت عنه ، ودفعته إليه »

٧٠ — كان هذا القدر اليسير من المال يتقنع به ، ويحمد الله عليه ، ولا يرضى معه أن يأخذ من أحد عطاء ، ولا أن يقبل منه معونة ، ولقد كانت تشتد به الحال أحيانا ، إذ لا تكفى تلك الغلة لنفقات عياله ، وتنزل به العسرة فكان يتحملها صابرا ، وكانت تلك العسرة تشتد ، وتعلو عن الاحتمال إذا كان فى سفر ، وانقطع منه الزاد ، فكان لا يهن ولا يضعف ، ويتعب جسمه أيضا فى سبيل راحة نفسه ،

ولقد وجدناه إذا اشتد به الأمر ، واشتدت عليه الفاقة يرد كل عطاء عالما بأن مافيه من منة أغلظ مما هو فيه من عسرة ، فيقبل ماهو فيه من شدة متفاديا بهذا من العطاء وأذاه .

وكان يحتال على سد رمقه وحاجة عياله باحدى طرائق ثلاث :

أولاها ـ أن يدفعه بالتقاط بقايا الزرع مما يكون فى حكم المباح ، فكان ذلك العالم الجليل ، المحدث يحمل حبله على عاتقه ، ويذهب ، فيجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض مباحا ، وقد كان حريصا على ألا ينزل فى أرض أحد إلا باذنه ، وألا يفسد زرع أحد ، ولذلك روى عنه أنه قال : « خرجت إلى الثغر على قدمى ، فالتقطنا ، وقد رأيت قوما يفسدون مزارع للناس ، لاينبغى لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا باذنه »(١)

ويظهر أن ذلك إنما كان يلجأ إليه إذا لم يجد عملا يعمله ويقتات منه ، ويسد حاجته . فان وجد عملا يعمله لجأ إليه ، وتلك هى الطريقة الثانية ، ولا يجد غضاضة فى أن يعمل مهما يكن نوع العمل مادام فيه نفع للناس وسد لحاجته ، فكل عمل شريف فى ذاته ، مادامت النفس تعلو به ، ولا تكون يد صاحبها اليد السفلى ، فلا صغار فى عمل يحله الدين ما دامت ترفع الانسان عن خسة المتناول من إفضال الناس ، والمتساقط من أموالهم .

وقد كان يؤجر نفسه للحمل فى الطريق ، إن لم يجد ماينفقه سوى هذه الأجرة ، وكان يكتب بأجرة إن لم يجد ماينفق منه ، ولقد جاء فى تاريخ الذهبى فى ترجمة أحمد ، عن على بن الجهم مانصه :

« كان لنا جار ، فأخرج إلينا كتابا ، فقال أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط أحمد بن حنبل ، فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد أياما ، ثم جئنا لنسأل عنه ، فاذا الباب مردود عليه فقلت ماخبرك ؟ قال سرقت ثيابى ، فقلت معى دنانير ، فان شئت صلة ، وإن شئت قرضا ، فأبى ، فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم ، فأخرجت دينارا ، فقال لى اشتر لى ثوبا ، واقطعه

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢٢٤

نصفين يعنى إزارا ورداء ، وجئنى بورق ، ففعلت ، وجئت بورق ، فكتب لى هذا ، وكان ينسج أحيانا ، ويبيع ماينسجه ، ويأكل منه ، ولقد حكى الذهبى أيضا عن اسحق أبن راهويه أنه قال :

« كنت أنا وأحمد باليمن عند عبد الرزاق ، وكنت أنا فوق الغرفة ، وهو أسفل ، وكنت إذا جئت إلى موضع ، اشتريت جارية ، فاطلعت على أن نفقته (أى أحمد) فنيت ، فعرضت عليه ، فامتنع ، فقلت إن شئت قرضا ، وإن شئت صلة ، فأبى ، فنظرت ، فاذا هو ينسج التكك : ويبيع وينفق » (١)

وترى من هذا أن ذلك الامام الجليل ما كان يجد فى العمل غضاضة ، مهما يكن نوع العمل ما دام حلالا ، وفيه نفع للناس ، فهو يقدم للناس ما يسد بعض حاجتهم فى نظير أن يأخذ ما لا يسد حاجته ، وهذا قانون الحياة الانسانية العاملة الدائبة ، ذلك لأن أحمد كان رجلا صالحا ، لا يهمه نظر الناس بمقدار ما تهمه نزاهة نفسه ، وعدم نيلها المال إلا من حله ، فهو لا يرى فى العمل خسة ، لأن الشرف الذاتى الصحيح إنما يستمد من نفس صاحبه ، وعلوها عن الدنايا ومنة الناس ، وإن الذين يجدون العار فى صغار الأعمال هم ضعاف الناس الذين لم يهبهم الله شرفا ذاتيا فى نفوسهم ، فيسدون ذلك النقص الانسانى ، بهذا التعالى المادى : وكل ميسر لما خلق له

وثالث المسالك التى كان يسلكها أحمد لسد حاجته أن يلجأ إلى الاقتراض ، ويظهر أنه لم يلتجىء اليه فى كل الأحوال ، وفى كل الأماكن ، بل كان يلجأ إليه ، حيث تكون غلة قريبة يترقب وجودها ، وحيث يستوثق من أن المقرض ما قصد عطاء ، وفى الحضر ، لا فى السفر ، لأن مظنة الوفاء فى الحضر قريبة ، حيث الامن والقرار ، وليس السفر كذلك ، وفى بعض الأحوال كان يأخذ قرضا معتزما الوفاء فى الميسرة ، والمقرض قد أعطى على نية ألا يأخذ ، فيختلفان ويصر أحمد على رأيه ، فيتم له مايريد .

كان قد استقرض مرة من بعض معاصريه أهل التقى الذين يعرف أن مالهم نزه لم يجمع إلا من حلال مقدار مائتى درهم أو ثلاثمائة على اختلاف الرواية ، فذهب

---

(١) راجع ترجمة أحمد للذهبى المنشورة فى مقدمة المسند طبع المعارف بتحقيق الاستاذ أحمد شاكر .

إليه يردها ، فقال له ياأبا عبد الله ما دفعتها ، وأنا أنوى أن آخذها منك ، فقال وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوى أن أردها عليك »[١]

٧١ ـ هذه هى حال أحمد ، وموارد رزقه آثر الكفاف مع الكدح ، وسغب العيش على أن يقبل منة العطاء،وقد كان مع ذلك حريصا كل الحرص على ألا يكون فى المال الذى يصل إليه شبهة ، فان كان فيه شبهة رده ، وآثر أن يغلب مع الحرمان جانب التحريم على جانب الاباحة ، يروى أنه رهن عينا له فى دين عليه، حتى إذا استطاع وفاء الدين ذهب إلى الدائن ، فوفاه دينه . ولما أراد أن يرد إليه رهنه التبس بعين مشابهة له من مال المرتهن فدفع إليه العينين على أن يختار أيهما ، ولكن أحمد بالغ فى الاحتياط لدينه ، فتركهما وقد سدد ما عليه ، أى أنه آثر أن يكون التارك لحقه المؤكد فى سبيل ألا يأخذ غير ماله ، لشبهته فى أنه أخذ ملك غيره بغير معاوضة توافرت فيها عناصر الرضا الكامل .

وهكذا ترى ذلك العالم الجليل يسير فى معاشه على سنة من يعلو بنفسه عن أن تكون يده السفلى، بل مع هذه الشدة والعسرة ، كان يعلو ، فتكون يده هى العليا ، ولذلك كان مع هذا القل من المال من أسخى الناس بما فى يده ، وما يستطيع ، وكان حريصا متشدداً فى أن يكون ماله حلالا طيبا ، لا شىء فيه من أدران الخبث ، أو شبهة الملك لغيره ، فكان ينطبق عليه بحق ذلك الوصف الكريم إنه كان شحيحا بدينه ، باذلا لماله ، ماأمكن البذل .

---

(١) حلية الاولياء ص ١٧٥ الجزء التاسع

رفض الولاية وعطاء الخلفاء

٧١ ـ قد رأيت كيف كان أحمد ضنينا بنفسه أن تهون بمنة العطاء ، وكيف كان شحيحا بدينه فلا يأخذ المال إلا إذا كان حلالا طيبا ، لا تعلق به شبهة ، ولا يتدرن بخبث ، وكان عند الزكاة يبالغ فى الايجاب على نفسه فيختار أشد الأقوال ، حتى كان يدفع زكاة عن عقاره الذى يغل ، والذى يسكنه ، مستأنسا بفتوى لعمر بن الخطاب ، عندما فتح سواد العراق .

وإذا كان أحمد كذلك فى تعففه وبذله بالنسبة لسواد الناس ، وأهل العلم والحديث ، فهل كان كذلك بالنسبة لمال الخلفاء ، وهو مال جمع من زكوات المسلمين ، ومن فرائض فرضت عليهم ، لينفق فى المصالح العامة ، ولا شك أن إعانة العلماء والمحدثين من مصارف ذلك المال ، فان أخذ فليس أخذه من مال الخلفاء ، ولكن من مال الأمة التى صرف كل همته فى نشر حديث رسولها ؟

إن أحمد رضى الله عنه قد كان بالنسبة لمال الخلفاء أعف ، وكان فيه أزهد ، بل كان يبعده عن نفسه إلى درجة النفور منه ، رفض أن يأخذه من ولاية ، ورفض أن يأخذه فى عطاء قط ، بل ألا يأخذ من مال من يقبل عطاء الخلفاء ، ولقد شدد فى ذلك ، حتى لقد كان يمنع أن ينتفع بأى وجه من أوجه الانتفاع بأى شىء لشخص قد قبل وقتا ما بعضا من مال السلطان .

هذا اجمال نفصله ببعض قليل من الأخبار الكثيرة التى وردت عنه فى ذلك .

٧٣ ـ عندما جاء الشافعى إلى بغداد فى المرة الثانية التى أقام فيها ، ونشر مذهبه بها ، كان أحمد قد التزم مجلسه ، ما كان يفارقه إلا لطلب حديث فى السفر أو الحضر ، ولاحظ الشافعى أن أحمد كان يرحل إلى اليمن لطلب حديث عبد الرازق بن همام كما بينا ، وكان يلاحظ بعد الشقة ، وعظم المشقة التى يعانيها أحمد فى هذه الرحلة ، بسبب أنه من المال قل ، وقد كلف الأمين الشافعى أن يختار قاضيا لليمن ، فوجد أن من التسهيل على أحمد أن يكون قاضى اليمن ، ليسهل عليه السماع من عبد الرازق من

غير مشقة ، فعرض على أحمد فرفض ، فكرر العرض ، فقال احمد للشافعى وهو شيخه ، وله منه التجلة والاحترام : « يا أبا عبد الله إن سمعت منك هذا ثانية لم ترنى عندك (١)

رفض أحمد من شيخه ذلك العرض الكريم ؛ لانه يريد إلا أن يكون للعلم وحده ، وألا ينال من المال إلا ما كان خاليا من كل شبهة ، ولأنه يرى أن المشقة فى سبيل العلم يجب احتمالها ، ولعله أيضا كان لا يجيز لنفسه أن يتولى القضاء كأبى حنيفة .

٧٤ ـ وإذا كان أحمد لم ينل من المال إلا ما كان خاليا من الشبهات ، فهو قد تعفف كما نوهنا عن عطاء الخلفاء ، وتشدد فى ذلك ، وهو فى أعظم العسرة .

والحق أن الأئمة كانوا فى ذلك منقسمين إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتعفف عن مال السلطان والخلافة ، ويرفض أن يأخذ ، ويشدد فى الرفض ، ومن هؤلاء أبو حنيفة والثورى ، فأبو حنيفة كان يعلم أن فى الامتناع عن الأخذ تعريض نفسه للتلف ، لأن المنصور كان يختبر بقبوله العطاء مقدار ولائه ، ومع ذلك يمتنع ، ويرجوه بعض رجال المنصور أن يأخذ المال ويتصدق ، ولكنه يأبى أن يدخله فى ملكه ساعة من زمان ، مهما تكن العواقب .

والقسم الثانى يقبل عطاء الخلفاء ، ويستعين به فى سد حاجات المعوزين وإعانة من يحتاج إلى معونة من أهل العلم ، وفى أن يعيش عيشة تليق بكرامة العلم وأهل الدين من غير اسراف أو تبذير .

وعلى رأس هذا القسم الحسن البصرى ، ومالك رضى الله عنه ، فمالك كان لا يتحوب فى الأخذ من الخلفاء ؛ لأنه مال المسلمين ، ومن أحق به من أهل العلم الذين وقفوا أنفسهم على تعليم الناس أمور دينهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وهم فى ذلك كالجند قد وقفوا أنفسهم لحماية الثغور من الأعداء لكيلا يشلوا فيها ثلمة ينفذون منها إلى الأمة ، فانه إذا كان الجند كذلك ، فالعلماء لمنع الضلال ولئلا يثلم الدين الثلم الذى يصل إلى قلوب الأمة ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوق السوء . وهذا بلا شك

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٢٧١ وقد نص على أن الشافعى كان مكينا عند الامين

من مالك نظر ، له أساسه ، ووجهته ، ويزكيه أن مالكا رضى الله عنه كان يحترم الحال الواقعة من نظام الحكومة أيا كان ، ومهما يكن حال الحاكم ، ساعيا فى تغيير نفسه بالاصلاح والموعظة الحسنة ، وذلك يقتضى الاتصال ، لا المقاطعة ، والاتصال يوجب عليه أن يقبل العطية ولا يردها .

والقسم الثالث ـ وسط بين الأول والثانى يقبل العمل للخلفاء ، ويأخذ العطاء ، ويتصدق به ، وإن كان حظا مقسوما ولم يكن عطاء أخذه ، وهو الشافعى ، فقد تولى الولاية للرشيد ، وقبل عطاءه ، ووزعه صدقات ، وقبل أن يأخذ سهم بنى المطلب من الغنيمة ، وقد كان لهم سهم فيها ، لالحاقهم ببنى هاشم إذا كانوا معهم فى السلم والحرب ؛ جاهلية واسلاما .

٧٥ ـ ولا شك أن أحمد اختار مسلك أبى حنيفة ، وإن كانت حال أحمد تجعل اختياره أعظم ابتلاء ، لأنه كان فقيراً ، فهو يرفض عطاء الخلفاء وغيرهم ويكرى نفسه ، ويكتب للناس الكتب بأجر ، فكان فى رفضه المتجمل الصبور ، وأبو حنيفة كان رجلا ثريا له تجارة تدر عليه الدر الوفير . وكان يسد به حاجة الفقهاء والمحدثين الذين كانوا على اتصال به ، وله على أى حال الفضل الكبير .

كان أحمد يرفض عطاء الخلفاء ، ولو كان يعم ، ولا يخصه ، ولو لم يقصد به شخصه ، بل وصفه ، يروى أن المأمون دفع إلى شيخ من شيوخ الحديث فى عصره مالا ، ليقسمه على أصحاب الحديث ؛ لأن فيهم ضعفاء أراد أن يعينهم على ما خصصوا أنفسهم له ، فما بقى منهم أحد إلا أخذ ما عدا أحمد بن حنبل (٢) .

ولقد كان ذلك والمأمون لم يتجه إلى محنة الفقهاء والمحدثين ، واختبارهم ، وحملهم على أن ينطقوا بأن القرآن مخلوق ، إذ أنه لم يتجه إلى ذلك الامتحان إلا بعد أن غادر بغداد غازيا ، ومات فى خرجته هذه بطرسوس ، وقد كان ذلك فى السنة الأخيرة من خلافته .

ولا شك أن عرض العطاء عليه لم يكن ظاهرا من الحاكمين فى عهد المعتصم والواثق ،

---

(٢) حلية الأولياء جـ ٩ ص ١٨١

بل ظهرت المحنة والأذى ، وكان الابتلاء بالبلاء لا بالعطاء، وبالمحنة لا بالنعمة ، ويظهر أنه كان بذلك النوع من الاختبار طيب النفس راضيا مطمئنا مستسلما لقضاء الله سبحانه وتعالى ، مستعينا به ، راجيا رحمته دون سواه .

٧٦ — ولما ذهبت دولة المحنة والبلاء ، وجاءت دولة الاطمئنان والقرار، إذ جاء عصر المتوكل اختبر أحمد اختباراً آخر قاسيا على النفس ، وله عقباه فى الجسم ، ذلك أن المتوكل عرض عليه المال الكثير ، والدر الوفير ، وألحف فى العرض ، وشددت حاشيته على أحمد فيه ، فأصر أحمد على الامتناع إصراراً شديدا ، ولم يقبل أن يأخذه ويتصدق به ، وكان الخليفة يطلب إليه ذلك ،ولكن أحمد لم يرد أن يدخل ذلك المال فى ملكه ساعة من الزمان، إلا مضطرا ، فهو فى نظره المال الذى لا يقار به أهل النزاهة لأن غيره أولى، إذ هذا المال لسد الثغور واعداد العتاد والقوة ، ومد الجند ، وإغاثة المحتاج ، والبائس والمعتر ، وما كان أحمد يعد نفسه بفضل ما منّ الله به عليه من الغلة القليلة من أهل الفقر والحاجة .

رد أحمد مال المتوكل ، ولم يقبله ، وان أكره على قبوله وزعه بين المحتاجين إليه من ذوى الفاقة والتجمل ،وقد كان ذلك الاكراه يحدث أحيانا فى أول عصر المتوكل ، إذ ألسنة أهل السوء لاتنى عن تحريضه عليه ، واغراء العداوة بينهما، حتى لقد فتشت داره بسعاية كاذبة ، أساسها أنه آوى علويا خارجا على الخلافة فى بيته ، فكان فى مثل هذا الجو الذى تسود فيه الريبة يأخذ المال مكرها ، ويوزعه على أهل الحاجة المتجملين المستترين .

يروى أن وزير المتوكل كتب له . « إن أمير المؤمنين قد وجه إليك جائزة ، ويأمرك بالخروج إليه ، فالله الله أن تستعفى ، أو ترد المال، فيتسع القول لمن يبغضك»(١) فأحمد يضطر ليبدد ظلمات السعاية إلى القبول ، ولكنه لا يمسه ، ويأمر ولده صالحا بأخذه ثم يوزعه فى اليوم التالى على أبناء المهاجرين والأنصار ، وغيرهم من أهل التجمل والحاجة ، وكأنه يرى أنهم أولى بمال المسلمين منه ، وقد حرموا عطاءهم .

---

(١) المناقب لابن الجوزى

ولكن المتوكل يطمئن إلى جانب أحمد كل الاطمئنان ، عند ما تبين له ما عليه من تقى وإيمان ، وابتعاد عن الفتن ، حتى أنه تبلغه نميمة وسعاية هى : « إن أحمد لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرم هذا الشراب الذى تشرب » فيقول قولا حاسما قاطعا لكل مشاء بنميم : « لو نشر المعتصم وقال لى فيه شيئا لم أقبله » (١)

وعندما بلغ أحمد هذه المنزله من الثقة قد ترك له المتوكل حريته كاملة فى أن يقبل عطاءه أو يرده ، فكان يرده ، ولو كان قد أرسله ليوزعه على أهل الحاجة والمعوزين، فأنه روى أنه وجه ألف دينار ليوزعها على أهل الحاجة فقال : أنا فى البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره ، وهذا ما أكره .

٧٧ ـ وإذا كان أحمد قد عف عن مال الخليفة ، وأراحه هذا من الاستطالة عليه لحمله على الأخذ مكرها ، فان ذلك العالم الجليل التقى لم يهدأ باله كاملا ، لأن أولاده وذوى قرباه كانوا يأخذون مال الخليفة ، وكان هو ينهاهم فلا ينتهون ، ويقول لهم : « لم تأخذونه، والثغور معطلة غير مشحونة ، والفىء غير مقسوم بين أهله » (٢)

ثم أنه يقاطعهم ، ولا يؤاكلهم ، ولا يشاربهم ، حتى إنه لا يأكل الخبز الذى يخبز فى تنورهم ، وبنارهم ، فأنه يرى أنه قد خبز له خبز فى تنور مسجور فى بيت ولده ، فرفض تناوله ؛ لأنه يأخذ جوائز السلطان ، ويبلغ الخليفة ذلك ، فلا يغضب ، ولا ينقم ، إذ عرف إيمانه وإخلاصه ، ويقول : « إن أحمد ليمنعنا من بر ولده » ، ويأمر بأعطاء أقاربه وأولاده خفية عنه ،

ولكن هل لنا أن نقطع بأن أحمد كان يرى أخذ مال الخلفاء حراما حرمة لاشك فيها ؟ يظهر أنه كان يشك ، ولا يقطع بالحرمة، والشك بالنسبة إليه كاف ليمتنع، وليلزه نفسه ، وألا ينتفع ممن أخذ منه مؤمنا بأنه ليس بحرام .

يروى فى ذلك أنه دخل عليه ابنه يعوده ، وهو مريض ، فقال له يا أبت عندنا شىء قد بقى مما كان يبرنا به المتوكل ، أفأحج منه ؟ قال نعم، قال : فاذا كان عندك هكذا،

---

(١) المناقب ص ٣٦٩

(٢) المناقب ص ٣٨٤

فلم لاتأخذه ، فقال : يابنى ليس هو عندى بحرام ولكنى تنزهت عنه » (١)

إذن فأحمد ما كان يقطع بأن قبول العطاء من الخلفاء حرام ،ولكنه كان يشتبه ، وحيثما اشتبه ، فأنه ينزه نفسه ، ذلك أنه من الزهاد الابدال الذى يؤثرون الخصاصة مع نفس نزهة على المال والثراء والنعمة مع اضطراب النفس بالشك والاشتباه والحيرة ، فهم يتركون مايريب إلى مالا يريب وكذلك كان فى فكره وقلبه وإيمانه .

(١) المناقب ص ٣٨٥

علم أحمد

٧٨ - ذاع علم احمد ، واشتهر وتحدث الناس بذلك ، وهو حي يرزق ، بل إن علمه بالحديث والأثر ، ذاع ، وهو لا زال شابا يتلقى العلم ، ويأخذ عن الشيوخ ، حتى إن احمد بن سعيد الرازى قال فيه ، وهو شاب : « مارأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أعلم بفقهه من أحمد بن حنبل ، ويقول له شيخه الشافعى : «أنت أعلم بالاخبار الصحاح منا ، فاذا كان خبر صحيح ، فاعلمنى ، حتى أذهب إليه ، كوفيا كان أومصريا أو شاميا » .

ولقد روى المزنى أن الشافعى قال : « ثلاثة من عجائب الزمان : عربى لا يعرب كلمة ، وهو أبو ثور ، وأعجمى لا يخطىء فى كلمة ، وهو الحسن الزعفرانى ، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار ، وهو احمد بن حنبل » ، ويروى حرمله بن يحيى تلميذ الشافعى أنه قال خرجت من بغداد ، وما خلفت بها أحدا أورع ، ولا أتقى ، ولا أفقه من احمد بن حنبل » .

ولقد وصفه الشافعى بالعقل مع علم الرواية والفقة ، فقد قال فيه كما روى تلميذه محمد ابن الصباح : ما رأيت أعقل من احمد بن حنبل ، وسليمان بن داوود الهاشمى » .

هذه كلمات الشافعى ، وهو العالم الأريب فى احمد الشاب ، ولا شك أنه بعد أن تقدمت سنه ، وهو لم ينقطع عن طلب الفقه والحديث يوما ، قد نما علمه وعقله ، وذاع اسمه وذكره ، وخصوصا بعد أن ابتلى ، فأحسن البلاء ، وصبر الصبر الجميل ، ولم يئن ولم يشك إلى أحد من خلق الله أذى الانسان ، ولننقل بعضا قليلا من شهادة معاصريه فيه .

فقد قال على بن المدينى معاصره « ليس فينا أحفظ من أبى عبد الله احمد بن حنبل ، ويقول فيه : « أعرف أبا عبد الله منذ خمسين سنة ، وهو يزداد خيرا » .

ويقول قرينه ومعاصره القاسم بن سلام : « انتهى العلم إلى أربعة احمد بن حنبل ، وعلى بن المدينى ، ويحيى بن معين وأبى بكر بن شيبة ، واحمد أفقههم فيه ، ويقول فيه « ما رأيت رجلا أعلم بالسنة منه » .

ولقد قال فيه يحيى بن معين « والله لا نقوى على ما يقوى عليه احمد ولا على طريقة احمد » .

ويقول فيه عبد الرحمن بن مهدى : « هذا أعلم الناس بحديث سفيان الثورى ، ويقول « ما نظرت إلى احمد بن حنبل إلا تذكرت به سفيان الثورى » [1] .

وسفيان الثورى فقيه أثرى زاهد، نزه النفس عفيف ، سنخصه بالذكر عند بيان من أثروا فى نفس احمد بن حنبل ، سواء فى ذلك من شاهدهم وعاينهم ، ومن تلقى علمهم من تلاميذهم . وأصحابهم ، فان سفيان كان أبرز الآخرين فى علم احمد ونفسه .

٧٩ — هذه قبسة أخذناها من المنقول عن العلماء فى الثناء على ذلك الامام الجليل الذى بذل نفسه فى سبيل ما يعتقد ، وربى نفسه وكملها ، واستحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وفتاوى أصحابه ، فرواها ودونها ، وتفهمها ، وتخرج عليها ، وأخذ طريقته فى الفقه منها ، فكان علمه كله ينتهى إليها .

ولا نريد فى هذا الموضع من بحثنا أن نبين مناحى علمه ، ومناهجه فى الحديث والفقه ؛ بل إن لذلك موضعه فى دراسة آرائه ورواياته وفقهه ، إنما الذى نريد أن نبينه ، ونحن فى دراسة تاريخه وأحواله ، والموجهات له — هو كيف تكونت له تلك الثروة العلمية ؟

وإن العوامل التى توجه الناشىء ، أو الشادى ، أربعة — أولها — صفاته سواء أكانت خلقية أم كانت كسبية — وثانيها — الموجهون له من الشيوخ ، ومن يتصل بهم — وثالثها — حياة الشخص ، ودراساته الخاصة — ورابعها — العصر الذى أظله ، والبيئة التى اكتنفته .

ولنتجه إلى بيان كل عامل من هذه العوامل ، ليتجلى للقارىء التوجيهات المختلفة التى سيطرت على هذه النفس الكريمة ، وأنتجت تلك الثمرات الطيبة من علم السنة ، وفقه الأثر ، وآراءه فيما يخوض فيه علماء الكلام ، قالها مخلصا فى بيانها ، ويستوى فى ذلك أن تكون الحق الذى لاشك فيه ، أو غيره ، ما دامت هى خلاصة ما انتهى إليه تفكير ، أو ما وجهته إليه دراساته .

---

(١) فى المناقب لابن الجوزى ، وحلية الاولياء ، وتاريخ الذهبى ، وطبقات ابن السبكى ثناء كثير للعلماء على احمد قد قبسنا منها هذه القبسة ، وارجع إلى الباقى فيها .

ولنبدأ من هذه العوامل بصفاته :

١ — صفاته

٨٠ — اتصف احمد بصفات كانت هى السبب فى هذه الشهرة التى اكتسبها ، وفى ذلك العلم الغزير الذى خلفه من بعده . وسارت الركبان بذكره ، وهذه الصفات بعضها هبات من الله العلى القدير يهبها لمن يشاء من خلقه ، وبعضها صفات اكتسبها بالتربية ، والمران ، والنشأة والتوجيه ، والنزوع إليها .

ولنذكر تلك الصفات بنوعيها ، ونشير إلى آثارها فى تكوين علمه .

٨١ — أول هذه الصفات الحافظة القوية الواعية ، وهى صفة عامة المحدثين ، وأهل الامامة منهم بشكل خاص ، ولقد اتصف بها مالك ، واتصف بها الشافعى من الفقهاء الذين تركوا ثروة من الفقه والنظر والاستنباط .

وهذه الحافظة هى الأساس لكل علم ونظر ، فلابد لأهل العلم أن تكون عندهم طائفة حفظوها ، يبنون عليها ، ويستنبطون منها ، وإن العلماء بالنفس فى عصرنا الحاضر ، كما كان الناس فى الغابر يردون عناصر الذكاء إلى الذاكرة المدركة ، والحافظة الواعية ، والبديهة الحاضرة التى تثير المعلومات التى حفظت فى أوقاتها المناسبة .

ولقد آتى الله احمد من هذه الصفة حظا وفيرا ، والأخبار فى ذلك متضافرة يؤيد بعضها بعضا ، فمن ذلك مايروى عنه ، فهو يقول : « كنت أذاكر وكيعا بحديث الثورى ، فكان إذا صلى العشاء خرج من المسجد إلى منزله ، فكنت أذاكره ، فربما ذكر تسعة أحاديث ، أو العشرة ، فأحفظها ، فاذا دخل ، قال لى أصحاب الحديث أملل علينا . فأملها عليهم ، فيكتبونها » .

ولقد شهد بقوة حفظه وضبطه معاصروه ، حتى عد أحفظهم ، وحتى لقد قيل لأبى زرعة معاصره : من رأيت من المشايخ والمحدثين أحفظ ، قال احمد بن حنبل .

٨٢ — ولم يكن احمد حافظا واعيا فقط ، بل كان يتفهم ماينقل ، فيحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وفتاوى أصحابه ، وفتاوى التابعين الذين اشتهروا بالورع . والفقه ، والافتاء ، ويتفهم كل ذلك تفهم العارف المستنبط الذى يبنى على ما عرف ، ولقد

امتاز بذلك الفهم من بين محدثى عصره ، فقد كانوا يكتفون بالرواية دون الفقه والدراية، وكأنهم تركوا الاستنباط للفقهاء الذين كانوا مختصين بصناعة الاستنباط ، وانطبق عليهم تشبيه أبى حنيفة الذى شبه فيه المحدثين بالصيادلة ، والفقهاء بالأطباء ،أما احمد فكان يعنى بفهم فقه الآثار، كما كان الحافظ الراوى الذى بلغ الشأو البعيد فى الرواية .

يقول فى ذلك اسحاق بن راهويه : « كنت أجالس بالعراق احمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وأصحابنا ، فكنا نتذاكر الحديث من طريق ،وطريقين ، وثلاثة ... فأقول ما مراده ؟ ما تفسيره ؟ ما فقهه ؟ فيقفون كلهم إلا احمد بن حنبل،وقد كان علمه بالحديث والسنة ، وفتاوى التابعين ، واستنباطه الأحكام منها سيبانى إن كان إماما فى الحديث وإما مافى الفقه ، حتى لقد قال فى ذلك تلميذه ابرهيم الحربى .

« أدركت ثلاثة لم ير مثلهم ، ويعجز النساء أن يلدن مثلهم : رأيت أباعبيد القاسم ابن سلام،ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلا ، ورأيت احمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ماشاء ، ويمسك ما شاء »[1] .

وجمعه لعلم الأولين والآخرين هو بحفظه للأحاديث ، وآثار السلف ،وفهم فقهها .

٨٣ - والصفة الثانية ، وهى أبرز صفات احمد ، وهى التى أذاعت ذكره ، ونشرت خبره،وهى صفة الصبر ،والجلد، وقوة الاحتمال،وهى مجموعة من السجايا الكريمة ،أساسها قوة الارادة ، وصدق العزيمة ، وبعد الهمة ، مهما يتعب الجسم فى سبيل ذلك ، ولقد كانت هذه الصفة المزاج الذى اختص به احمد ، فجمع بها بين الفقر والجود والعفة وعزة النفس ، والإباء وبين العفو ، واحتمال الأذى ، وهى التى جعلته يحتمل ما يحتمل فى طلب العلم ، غير وان ولا راض بالقليل منه ، يجوب الأقطار ،ويقطع الفيافى والقفار، راكبا إن أسعفته الحال ، وماشيا إن ضاقت النفقة ، فهو يرحل إلى البصرة والكوفة ، وإلى اليمن ، والحجاز ، ويكرر رحلاته طلبا للحديث ، وليتلقى من رجاله، ويؤجر نفسه لحمل الأمتعة لينال ما يسد به رمقه فى الطريق ، كما يكتب بأجرة وينسخ عند ما يحط الرحال وتضيق به الحال ، بل يصنع بعض ما يعرف من الصناعات ، ليأكل من عمل

---

(١) هذا النقل و مابقة من المناقب لابن الجوزى وحلية الاولياء ، والحافظ الذهبى ،وطبقات ابن السبكي

يده ، اقتداء بالنبيين ، واتباعا لمنهاج الصالحين ، ويفضل ذلك على العطاء ؛ لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

والقوة التى كانت تمده بالعون هى هذه الصفة السامية — الصبر ، والجلد وقوة الاحتمال وقوة الارادة ، والعزيمة ، وبعد الهمة ، مع الفقر وشدة الحاجة .

ولما صار له شأن من الشأن ، وتصدى للدرس والافتاء نزل به البلاء الأكبر ، والمحنة العظمى ، فكانت تلك الصفة هى عدته ، وبها كانت أهبته ، فقد صبر ، وصابر الذين أنزلوا به الأذى ، حتى ملوا الأذى ، ولم يهن ، ولم يستكن ، ولم يستخذ لهم ، ولم يجبهم إلى قولهم ؛ لأنه فى اعتقاده البدعة ، وإن لم يكن كفرا ، والانحراف ، وإن لم يكن مروقا ، وما كان ذلك الاحتمال إلا بقوة الارادة والعزيمة وقوة الاحتمال والجلد .

ولما من الله عليه بالرخاء بعد الشدة ، ابتلى بالنعمة بدل النقمة ، وكان لابد أن يحسن البلاء فيها ، كما أحسن البلاء فى الشديدة ، قدم إليه العطاء كثيرا موفورا ، وهو فى الحاجة التى تشبه المخمصة ، وأولاده وأحفاده حوله يقاسون ما يقاسى من هذه الحاجة ، ولكنه علا على ذلك كله بقوة إرادته ، وصدق عزيمته ، وبعد همته ، فرد كل عطاء ، لنزاهة نفسه ، وليبقى هو لله خالصا لا لأحد من عبيده ، فكانت تلك الصفة فى هذا أيضا عدته ، وجهاده هنا لا يقل عن جهاده الأول ، بل هو مثله ، وإن لم يكن من نوعه ، ولكنه أنبل ، وأسمى ، وأعلى ، فرضى الله عنه .

ومما لاشك فيه أن هذه الصفة هى التى كونت له تلك السمعة الذائعة ، وتلك الشخصية الرائعة ، وهى أبرز صفاته ، ومفتاح عظمته ، وسرها ، وعنوانها .

٨٤ — وإن من الحق علينا أن نذكر أن صفة الصبر التى امتاز بها احمد هى من نوع الصبر الجميل الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم ، ودعا إليه يعقوب عليه السلام بنيه فيما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : « فصبر جميل » .

والصبر الجميل هو الصبر من غير أنين ، ولا شكوى ، ولا ضجر ، وكذلك كان احمد رضى الله عنه ، فلقد نزل به الأذى فما أن ، وما ضج بالشكوى ، وكان فيه صاحب الجنان الثابت الذى لا يطيش ، ولا يذهب .

ولنذكر لك خبرا يدل على قوة جنانه وثباته ، فأن مما يروى أنه أدخل على الخليفة

فى أيام المحنة ، وقد هولوا عليه لينطق بما ينجيه ويرضيهم ، وقد ضرب عنق رجلين فى حضرته ، ولكنه فى وسط ذلك المنظر المروع ، وقع نظره أيضا على بعض أصحاب الشافعى ، فسأله : « أى شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح على الخفين ، فأثار ذلك دهشة الحاضرين ، وراعهم ذلك الجنان الثابت الذى ربط الله على قلب صاحبه، حتى لقد قال خصمه احمد بن أبى دؤاد متعجبا : « أنظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه ، فيناظر فى الفقه » [1] ولكنها الارادة القوية ، والايمان العميق ، والنفس المفوضة المسلمة ، لقضاء الله وقدره ، وهو الصبر الجميل الذى أخذ نفسه به ، حتى إنه لم يئن عند المرض ، خشية ألا يكون صبره على أمر الله جميلا .

٨٥ — وقد يتساءل القارىء عن سر هذه القوة التى جعلته يحتمل ما احتمل ، ويعلو على الشدائد ، وعندى أن السر فى ذلك أن هذا الرجل العظيم قد اعتز بالله وحده، وتوكل عليه تعالى وحده ، ولم يحس بعظمة أحد سواه ، ولامتلاء نفسه بهذا الوجدان العظيم استهان بكل شىء ، استهان بالشدائد ، واستهان بمنزليها ، واستهان بمفاخر الحياة وزينتها ، ورضى من متاعها بالقليل ، ولم يقنع من العمل لله بغير الكثير الوفير .

وقد أعطاه ذلك الاعتزاز علوا عن سفساف الأمور ، فلم يعلق بنفسه درن من حقد ، أو حب انتقام ، ولذلك كان كثير العفو عمن يسىء إليه ، يروى أن رجلا قد اغتابه ، ثم قال له يا أبا عبد الله اغتبتك ، فاجعلنى فى حل قال أنت فى حل ، إن لم تعد .

ويروى أنه ظهر من بعض إشاراته عدم تقديره لفقه أبى حنيفة ، لاختلاف منهاجهما ، فقال بعض المتعصبين لأبى حنيفة : « بول أبى حنيفة أكثر من ملء الأرض مثلك ، ثم تركه مغاضبا ، ثم عاد إليه نادما ، وقال له متعذرا يا أبا عبد الله ، إن الذى كان منى كان على غير تعمد ، فأنا أحب أن تجعلنى فى حل ، فقال احمد العظيم فى نفسه : ما زالت قدماى من مكانهما ، حتى جعلتك فى حل [2] .

ولاعتزازه بالله كان متواضعا متطامنا لعامة الناس، مقيلا لعثراتهم ؛ فان المعتز بغير الله يكون غليظ العنق مستكبرا ، والمعتز بالله يكون طيب القلب متطامنا . ولقد حكى عنه تلميذه المروزى ، فأحسن فقال : « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله

(١) حلية الاولياء جـ ٩ ص ١٨٦
(٢) المناقب لابن الجوزى ص ١٢٣ .

« كان مائلا إليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا ، لا يتكلم ، حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس » (٢) .

٨٦ — الصفة الثالثة من صفات احمد التى امتاز بها النزاهة بأدق معانيها ، وكانت فى أشكالها وصورها ذات مظاهر عدة ، فهو نزه النفس ، فلم يأخذ قليلا ، ولا كثيرا من مال غيره ، فكان عفيفا فى أعلى درجات العفة ، وعيوفا عن أموال الناس فى أكمل ما يكون عليه الرجل الكامل ، وكان نزيها فى إيمانه ، فلم يجعل لأحد عليه سلطانا ، ولم يطق أن ينطق بغير ما يعتقد ، ولا أن يوارى ويدارى ، ولو كان السيف يبرق فى يد من يرعد به ، ورضى بانزال الأذى الشديد عن أن ينطق بكلمة فيها مداجاة ، فما كان يرضى بالدنية فى دينه ، وكان نزها فى عقله ، فلم ير أن يخوض فى أمر لم يخض فيه السلف الصالح ، وكذلك سلك فى فقهه ، فوجد أن من نزاهة العقل ألا يفتى حيث علم أن لأحد الصحابة فتوى فى المسألة التى سئل فيها ، بل كان إذا وجد الصحابة اختلفوا فى مسألة لم يوازن بين أقوالهم ، ويختار واحدا منها ، على ضوء ما تؤدى إليه الموازنة المستقيمة ، والقياس الدقيق ، إذا لم يكن نص أو خبر صحيح ، بل يجعل المسألة ذات أقوال ، وللمبتلى أن يختار أيها شاء ، إذا لم يكن أحدها أقرب إلى النص من غيره ، فنزاهة الفكر أو الفقه عنده توجب عليه الاتباع المطلق للسلف الصالح ، وليس من شأن الاتباع المطلق أن يخطىء هذا ، ويصوب ذاك من غير نص ، إذ كل واحد منهم من رسول الله ملتمس .

٨٧ — هذه نزاهة مطلقة ـ أخذ نفسه ذلك الامام الجليل بها ، ولقد دفعته عفة النفس أو نزاهتها على حد تعبيره أن يترك بعض الحلال . وأن يمتنع عن قبول عطاء الخلفاء ، مع تصريحه لبعض أولاده بأنه حلال يصح الحج منه ، وأنه يتركه تنزيها للنفس . لا تحريما .

وبهذا التضييق الذى سلكه فى شأن نفسه ، حتى كان لا يأكل إلا من كسب يده . أو من غلة عقار ورثه ، ويلقى فى سبيل ذلك العناء الشديد ، والحرمان من كثير من طيبات الحياة ، ولهذا كان زاهدا ، ولكنه زهد ، ليس أساسه الرغبة عن طيبات

---

(١) تاريخ الحافظ الذهبى .

الحياة ، بل أساسه طلب الحلال ، ولكن لا يطلبه من مال فيه شبهة ، بل من مال يناله من غير أن تصاب النفس فى نزاهتها أو عزتها ، ومن غير أن يلجأ فى ذلك إلى أحد من العباد .

وكان يرى أن الزهد الذى يلين القلوب ، ويرقق النفوس ليس هو فى الامتناع عن الحلال، ولكن فى طلبه من غير أن يدنس النفس :

يروى فى ذلك أن أبا حفص عمر بن صالح الطرسوسى قال : «ذهبت إلى أبى عبد الله فسألته ، بم تلين القلوب ، فأبصر إلى أصحابه ، ثم أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : يابنى ، بأكل الحلال ، فمررت إلى أبى نصر بشر بن الحارث ، فقلت له : يا أبا نصر بم تلين القلوب ؟ قال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقلت ، فأنى جئت من عند أبى عبد الله ، فقال هيه أيش قال لك أبو عبد الله ، قلت بأكل الحلال ، فقال جاء بالأصل ، فمررت إلى عبد الوهاب بن أبى الحسن ، فقلت : بم تلين القلوب ، فقال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » قلت : فأنى جئت من عند أبى عبد الله ، فاحمرت وجنتاه من الفرح ، وقال لى أيش قال أبو عبد الله ، فقلت قال بأكل الحلال ، فقال : جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال »

وهذه القصة تعطيك منطق أحمد الدقيق فى ورعه وزهده ، فهو ما كان ينقطع عن الحياة وأسبابها ، ومتعها ، بل كان لا يمتنع عن متع الحياة على شرط الدين والخلق الفاضل ، وهو ألا يأخذها من غير حلها ، فهو يطلب الحلال ، ولا يأكل إلا الحلال ، وفى تحرى الحلال ، كانت نفسه معناة ، يترك ماتشتبه فيه قل أو جل ، ولا يأخذ إلا مالاشبهة فيه ، ويكتفى به ، وإن قل ، فمنطقه فى هذه الحياة هو منطق الحى القانع الراضى ، الزاهد فى غير الحلال ، مهما تكن حاجته إليه .

وفى دائرة الحلال الذى لاشبهة فيه يستطيب متع الحياة ، ويستأنس بالصحاب وأهل المروءة ، ويقول : « يؤكل الطعام بثلاث ، مع الأخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة »

وكان يحب الصداقة والأصدقاء ، ويفهم معناها الدقيق ، ويعرف أن الحياة من غير أصدقاء حياة جافة ذليلة ، ويقول « إذا مات أصدقاء الرجل ذل »

ويسخو ويجود بالحلال القليل الذى ناله من طيبات هذه الدنيا . ويقول فى ذلك : لو أن الدنيا تقل ، حتى تكون فى مقدار لقمة ، ثم أخذها أمرؤ مسلم ، فوضعها فى فم أخيه المسلم ما كان مسرفا » . وهذ أقصى غايات الجود .

ولقد كان رحمه الله يرى أن الاقتصار على الحلال الخالص الذى لا شبهة فيه مرتبة هى من أعز المراتب نيلا لا يقوى عليها إلا الأشداء ، ويرى أن القوة الحقيقية للانسان ليست فى قوة البدن ، ومنة الجسم ، ولكن فى الاستيلاء على النفس ، وحملها على الاقتصار على الحلال ، وألا تسير وراء ماتهوى ، ولقد سئل رحمه الله عن الفتوة ، فقال : « إنها ترك ماتهوى لما تخشى » أى أن قوة العزيمة والتحكم فى الأهواء والسيطرة عليها هى القوة كل القوة ، أو هى القوة التى يليق أن يتصف بها الانسان ، ويتميز بها عن سائر الحيوان .

٨٨ — وأما نزاهة العقل والايمان ، فحسبك فى بيانها ماتقلناه من أخبار المحنة ، وكيف صابر وجاهد ، وما كان جهاده إلا لينزه عقله عن أن يفكر فى أمر لم يؤثر عن السلف أن عنوا بدراسته ، وأن يخوض فى مسائل الخوض فيها يؤدى إلى متاهات يتيه فيها العقل ، ويضل ، ولا يقوى على الوصول إلى الحق فى بيدائها المتسعة . بل كان يفوض كل التفويض فى كل المشتبهات التى وردت فى القرآن . وسيكون لذلك فضل من البيان نذكره عند الكلام فى آرائه المتصلة بالعقيدة فى ذلك المضطرب الفسيح من الآراء فى العصر الذى اشتدت فيه الاحتكاكات الفكرية بين ذوى المنازع المتباينة .

وقد رأيت فى أعمال الخلفاء معه كيف ينزه إيمانه عن أن يأخذ بالتقية ، لأنها منزلة لاينزل إليها إلا الذين لايحتملون الشديدة فى سبيل اليقين ، ورخصة لايترخص فيها إلا الذين يضعفون ولا يحتملون ، أما الأقوياء ، فهم ينزهون إيمانهم عنها . والناس فى الايمان درجات ، وقد كلف كل مؤمن قدر طاقته .

٨٩ — ولنزاهة عقله وإيمانه ابتعد عن الجدل مع أهل الأهواء والبدع فى نظره ، لأن عدوى الأفكار تسرى بين المتجادلين بالاحتكاك ، كما تسرى عدوى الأمراض بالاحتكاك والاختلاط ، وكذلك كان ينهى أصحابه عن الجدل معهم تنزيها لايمانهم ، وابتعادا عن كل مواطن الريب

سأله بعض أصحابه : قائلا أن ههنا من يناظر الجهمية ، ويبين خطأهم ، ويدقق عليهم المسائل ، فما ترى ؟ قال : لست أرى الكلام فى شىء من هذه الأهواء ، ولا أرى لأحد أن يناظرهم . أليس قال معاوية بن قرة . الخصومات تحبط الأعمال ، والكلام ردىء ، لا يدعو إلى خير ، تجنبوا أهل الجدال والكلام ، وعليك بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم ، فانهم كانوا يكرهون الكلام . والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة فى ترك هذا ، لم نؤمر بالجدال والخصومات ، وقال إذا رأيتم من يحب الكلام ، فاحذروه (١)

ولقد كتب اليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، والجلوس معهم ، فاملى هذا الكتاب جوابا عن السؤال

« احسن الله عاقبتك ، الذى كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله ، لا تعد ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليورد عليه بعض مايلبس عليه فى دينه » (٢)

وهكذا ينهج الأمام أحمد منهج الأمام مالك ، فقد كان مالك رضى الله عنه يكره الجدل ، ويعد الجدل بعيداً عن لب الدين وحقيقته ، وأن أهل الجدل هم الذين أفسدوا على الناس أمور دينهم ، وعلى هذا المنهاج سار أحمد .

ولقد كان أبو حنيفة والشافعى رضى الله عنهما على غير ذلك المسلك ، فلقد كان أبو حنيفة يجادل الجهمية وغيرهم ، ويلجن بالحجة عليهم ، ويسد عليهم طرائقهم ، والشافعى كان قوى الجدل ، شديداً فى الخصام ، ولكن لطالب الحق . لا للغلب ، وإن كتبه كلها صور من المناظرة الجيدة المستقيمة ، وكل وما يختار من المناهج ، والمسالك .

٩٠ — وأما نزاهة فقهه ، فقد كان حريصا على ألا يخرج عن السنة ، وكان متبعا للرسول وللصحابة فى كل فقهه ، ومايخرجه من آراء . فأساسه ماروى عن النبى ﷺ وعن التابعين ، وكان حريصا كل الحرص على ألا يرد فى فقهه حديثا نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا عارضه أقوى منه ، وكان يقول : « من رد حديث رسول الله

(١) تاريخ الذهبى (مقدمة المسند ص ٢٢) جمع المعارف بتحقيق الاستاذ الشيخ احمد شاكر
(٢) الذهبى مقدمة المسند ٨٥

صلى الله عليه وسلم ، فهو على شفا هلكة » وكان يقول : « ما كتبت حديثا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به »

وإذا لم يجد الحديث ولا السنة عن الصحابة اجتهد فى تخريج المسألة على منهاج من سبقه غير مبتدع سبيلا غير سبيلهم ، وكان ينهى عن الاجتهاد فى مسألة لم يتكلم فيها أو فى منهاجها أحد ممن سبقه ؛ ولذلك كان يقول لخاصة تلاميذه « إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام »

وهكذا تراه يحرص على أن ينزه فقهه عن الخروج على السنة ، ويقيده بقيود لا نرى غيره حرص على تقييد فقهه بها ، ولنؤجل بيان ذلك بيانا كاملا الى الكلام فى فقهه ، إذ هو لب موضوعنا ، وغاية بحثنا .

٩١ — الصفة الرابعة من صفات أحمد التى امتاز بها الاخلاص ، والاخلاص فى طلب الحقيقة ينقى النفس من أدران الغرض ، فتستنير البصيرة ، ويستقيم الادراك ، ويشرق القلب بنور المعرفة وهداية الحق . ولقد وجدنا الائمة الثلاثة الذين سبقوا أحمد فى الاجتهاد الفقهى ، وكان لنا حظ دراستهم ، قد اتصفوا جميعا بهذه الصفة ، وامتازوا بها ، ذلك لأن الهداية لا تكون إلا لمن يقذف الله فى قلبه بنور الاخلاص إذ الاخلاص لله سبحانه وتعالى هو أن يحب الشىء لا يحبه إلا لله ، فلا يطلب العلم لمراء أو جدال ، أو لاحتياز مجالس ، أو لجاه عند ذى سلطان ، ومن ارتقى بعلمه إلى هذه الرتبة ، لا تعلق به غواشى الامتراء ، ومعوقات الهوى ، بل يتجه إلى الحقيقة اتجاها مستقيما ، لا عوج فيه ، ومن اتجه إلى طلب الحقيقة مستقيما وصل إليها بنور الله ، ونطق بالحكمة لهداية الله ، ووصل إلى الغاية من أترب طريق ، وأهدى سبيل .

ولقد آتى الله أحمد حظا كبيرا من الاخلاص فى طلب علم الكتاب والسنة ؛ فما طلبه لجاه الدنيا ، ولا للشهرة والسمعة ، بل كان ينفر منهما أشد النفور ، ويتمنى ألا يكون شيئا مذكورا عند الناس ، وكان يتجنب الرياء ويباعده ، ويبالغ فى الابتعاد عنه ، حتى إنه كان لا يظهر المحبرة ، ليذكره الناس بالحرص على الكتابة بل كان يقول : « إظهار المحبرة من الرياء » . وكان يؤثر ألا يسمع به أحد . فكان يقول : أريد النزول بمكة ألقى نفسى فى شعب من تلك الشعاب ، حتى لا أعرف » وكان ينفس على

من أخمل ذكره تلك المنزلة النفسية العالية ، فيقول : « طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذكره » .

ولهذا المعنى الجليل الذى سيطر على نفسه ، فجعلها خالصة لربه كان يستقل ما يقوم به من من عبادات ولا يستكثر ماوقع له من محنة . فكان لايذكرها ، ويستر آثارها ولا يحب أن يعلم الناس مانزل به،وكان بعيدا عن الزهو والافتخار ، لايفتخر بعمل قام به ، ولا يزهو على أحد بحال هو عليها . قال يحيى بن معين فيه : مارأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبته خمسين سنة ، ماافتخر علينـــا بشىء مما كان فيه من الصلاح والخير » (١) .

وذلك لأنه كان لا يستكثر ماقدم ، والنفس اللوامة المؤمنة ، تتهم صاحبها بالتقصير ولا تدل على الناس بالعبادة .

٩٢ — الصفة الخامسة التى امتاز بها احمد ، وجعلت لدروسه وكلامه مواقع من نفس سامعيه لا تزول ـ الهيبة ، فلقد كان مهيبا ، من غير خوف ، وموضع الاجلال والاحترام من غير رهبة ، وكانت له هيبة ، حتى فى نفس أساتذته،فقد كان بعض أساتذته يمزح مع بعض تلاميذه ، غير عالم بمكان احمد من المجلس ، فلما علم بمكانه لا مهم ، إذ لم ينبهوه إلى وجوده ، حتى لايمزح ، وهو فى حضرته .

وكانت الشرطة تهابه ، حتى عند ما كانوا يساورون داره ، فأنه يروى أن الشرطى المنوط به القيام بالليل ذهب لينادبه ، فهاب أن يطرق بابه، وآثر أن يطرق باب عمه ، ويصل إليه من ذلك الباب ، بعد أن تستأنس نفسه بذلك اللقاء المهيب .

أما هيبة تلاميذه له ، فأعظم من ذلك ، وإن كان هو الأليف المألوف ، الموطأ الكنف الذى يجانب العلو والاستكبار ، فأحد تلاميذه يقول فيه : « كنا نهاب أن نرد احمد فى الشىء ، أو نحاجه فى شىء من الأشياء » ويقول أحد معاصريه الذين تتلمذوا له : « دخلت على اسحاق بن ابراهيم ، وفلان وفلان من السلاطين ، فما رأيت أهيب من احمد بن حنبل ، صرت إليه ، أكلمه فى شىء ، فوقعت على الرعدة حين رأيته من هيبته » .

(١) الحلية جـ ٩ ص ١٨١

ويقول أبو عبيدة القاسم بن سلام : «جالست أبا يوسف ، ومحمد بن الحسن ، ويحيى ابن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدى ، فما هبت أحدا منهم ، ما هبت احمد بن حنبل » .

٩٣ — وما سر هذه الهيبة التى كانت لذلك الرجل العظيم ؟ إنها هبة الله سبحانه وتعالى ، يهبها لمن يشاء من عباده ، ففى الناس رجال آتاهم الله قوة نفس ، وقوة وجدان ، وإشعاعا روحيا ، يجعلهم يؤثرون فى غيرهم ، ويستولون على نفوس الناس ، لا بقوة السلطان ، ولكن بقوة الوجدان .

ولقد كانت كل أحوال احمد من شأنها أن تنمى هذه الهبة ، وتقوى تأثيرها ، وتجعل أثرها بالغا ، فجد لا مزاح فيه قط ، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة مجة من العقل ، أو غفوة من الوجدان الدينى ، وهو لا يريد أن يمج عقله ، ولا يريد أن يخبى نار الوجدان لأن فى قوة الاحساس الدينى ارهافا للايمان ؛ وهو مع جده فى صمت دائم ، لا لغو فى القول ولا تأثيم ، وهو فى حضرة أصحابه يأبى أن يتكلم إلا فى العلم ، ويأبى إلا أن يصمت والصمت والابتعاد عن اللغو يجعلان المتصلين بالشخص متحفظين فى حضرته ، وبذلك تنمو المهابة ، فأنه لا يبذل نفس الانسان ، ولا يسقط المهابة ، ويذهب بالروعة أكثر من لغو القول والمراء والجدل ، والمكاثرة والمهاترة ، وقد تجافى احمد رضى الله عنه عن ذلك ، و باعده عن قلبه ولسانه .

وإنه مما نمى مهابته ، تلك المحنة التى نزلت به فتحملها بجلد وصبر ، فأنها أشاعت ذكره ، وتحدث الناس بأمره وإن حسن السمعة ، وبعد الصيت ، وجميل الذكر ، تجعل لمجلس صاحبها روعة ، وهيبة فى نفوس الناس ، فأن ألسنة الخلق بالثناء ، تلقى مهابة صاحب الثناء فى النفس ، وخصوصا إذا كان أهلا لذلك ، وله فى نفسه جلال وتقى وهدى الايمان ، وبرد اليقين .

٩٤ — وإنه مع هذه الهيبة ، وذلك الجلال كان حسن العشرة ، ولم يكن فظا غليظا ، بل كان طلق النفس والوجه ، كريم الخلق سمح المعاملة لينا رفيقا ، وكان شديد الحياء ، يستحى من الله حق الحياء ، ويستحى من الناس ، فلا ينافرهم ، ولا يكابرهم ، قال بعض من لاقوه فى وصفه : « مارأيت أحدا فى عصر احمد ممن رأيت أجمع منه ديانة ، وصيانة

وملكا لنفسه ، وفقها ، وأدب نفس ، وكرم خلق ، وثبات قلب ، وكرم مجالسة ، وأبعد عن التماوت » (١) .

ويقول فيه غيره : « كان احمد من أحيى الناس ، وأكرمهم نفسا ، وأحسنهم عشرة وأدبا ، كثير الأطراق والغض ، معرضا عن القبح واللغو . لا يسمع منه إلا المذاكرة بالحديث ، وذكر الصالحين والزهاد فى وقار وسكون ولفظ حسن . وإذا لقيه إنسان بش به ، وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ تواضعا شديدا ، وكانوا يكرمونه ويعظمونه » .

٩٥ — هذه اخلاق احمد ، وهى هدى نبوى كريم ، اتبع فيه هدى النبى ﷺ ، واتخذ منه قدوة ، وأخذ بقوله سبحانه وتعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » فكان يتعرف أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويأخذ نفسه بها أخذا شديدا ، من غير مراءاة ، أو سعيا وراء الشهرة التى كان يتململ بها إذ جاءته ، فكان الرفيق ، وكان ذا الحياء المهيب ، والمتواضع المستكين ، المعتز بالله العلى القدير .

٢ - شيوخه

٩٦ - يعتبر من شيوخ احمد كل من تلقى عليه فقها ، أو أخذ عنهم سنة ، أو روى عنهم حديثا ، سواء أكان قد انتقل إليه ، أم كانوا معه فى بغداد ، ولقد أحصى ابن الجوزى فى مناقب احمد شيوخه عدا . فتجاوزت حسبتهم المائة، وإذا كان شيوخه بهذه الكثرة العددية ، فلسنا نستطيع أن نقول إن لهم جميعا أثرا بليغا فى نفسه ، وربما كان منهم من اقتصر على أن يروى عنه الحديث ، بل ربما كان منهم من كان لقاؤه به مرات معدودة لا توجهه توجيها علميا ، وإن كانت تعطيه رواية سنة لم يكن قد عرفها من قبل ، وربما أعطته سندا آخر لسنة معلومة لديه من قبل بسند صحيح .

ولكنا ونحن ندرس الشيوخ الذين أثروا فيه لا يهمنا كثيرا تعرف كل من تلقى عنهم ، بل يهمنا فقط تعرف من وجهوه من بين من تلقى عليهم ، ويكون توجيههم متفقا مع نزوعه النفسى ، ومع جهوده التى عرفناها من بعد ذلك ، ولقد يكفينا فى هذا تعرف واحد أو اثنين فى بيان حياة الامام، فأنه ليكفينا فى دراسة أبى حنيفة أن نعرف حمادا شيخه ، وابراهيم النخعى الذى نقل حماد علمه ، كما أنه يكفينا فى تعرف حياة الشافعى ، أن نعرف مالكا الذى وجهه التوجيه الفقهى . ومن تلقى عليهم من أهل الحديث فى مكة مثل سفيان بن عيينه ، وهكذا .

٩٧ - وكذلك نحن فى دراسة احمد يكفينا أن نعرف من الذى نمى فيه ذلك النزوع إلى السنة ، ثم من الذى وجهه مع السنة إلى الفقه ، وإنه ليبرز لنا فى ذلك شخصيتان لهما بالغ الأثر فى توجيهه إلى السنة ، وفى توجيهه إلى الفقه ، وإن للأولى الأثر البليغ ، حتى لونت الثانى بلونها ، واختلط على الناس أن له فقها ، أو إن علمه كله سنة لا فقه فيه .

أما الشخصية الأولى فهى التى استقبلته ووجهته أو نمت نزوعه ، وجعلت منه طالب سنة دءوبا فى طلبها ، يجوب لأجلها الأقطار، ويقطع الفيافى والقفار ، وهى شخصية هشيم ابن بشير بن أبى خازم ، فقد علمنا أنه عند ما نزع إلى الحديث واستخار الله، واختاره فى السادسة عشرة من عمره اتجه إلى هشيم هذا ، ولزمه نحو أربع سنوات ، وقيل خمسا تكون فيها، وكمل اتجاهه اتجاها كاملا إلى السنة ، وروى عن هشيم ، وعن سائر محدثى

بغداد طائفة كبيرة من السنة . ولكن هشيما كان أبرز الشخصيات أثرا فى حياته فى مدى هذه السنوات الأربع ، أو الخمس على اختلاف الروايات . وهى السن التى تكونت فيها النواة الأولى لعلمه فى الحديث .

٩٨ - وقد ولد هشيم سنة ١٠٤ وتوفى سنة ١٨٣ ، وقد تلقى على بعض التابعين كعمرو بن دينار، والزهرى ،وغيرهما، وكان ذا عناية بمعرفة آثار ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم ، وقد آلت إليه حلقة أهل الحديث ببغداد ، فعند ما اتجه احمد إلى الحديث ، وجده شيخ هذه الحلقة ، وقد كان ذا سمت حسن فى الاسلام ، وذا هيبة وتأثير فى نفس احمد رضى الله عنه ، حتى إنه ما كان يسأله قسط هيبة له وإجلالا لعلمه ، وما سأله مدة ملازمته له إلا مرة أو مرتين ، وقد كان يسبح بحمد الله بين رواية حديث ، ورواية آخر ، ويقول لا إله إلا الله يمد بها صوته . وكأنه يذكر جلال الله سبحانه وتعالى لتمتلىء بذكر الله نفسه ، فيستشعر تقواه عند رواية حديث رسوله ، ونقل أصول دينه .

وحياة هشيم هذا كانت انصرافا إلى العلم بجملته ، جاهد فى سبيله ، حتى شق الطريق لنفسه ، وكأن احمد ما أخذ منه علم الحديث فقط ، بل تلقى عنه الجهاد فى طلبه ، وتحمل المشقة فى سبيله .

كان هشيم بخارى الأصل ، وقد أقام أبوه فى واسط . ويروى أنه كان طباخ الحجاج بن يوسف ، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد ، كان يصطنع هذه الصناعة ، وقد اشتهر باعداد بعض أنواع أطعمة السمك، وإجادته . فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مالوفا فى أسرته ؛ بل كان غريبا عليها ، فكان ينهاه عنه ، ويلومه عليه ، ولكن ابنه كان يتحمل اللوم صابرا ، ويطلب الحديث مجاهدا ، وكان يحضر مجالس أبى شيبة القاضى ، ويناظره فى الفقه ، وقد حدث أن مرض مرة ، فتفقده أبو شيبة ، فقيل له إنه عليل ، فقال قوموا بنا ، حتى نعوده . فقام أهل المجلس جميعا يعودونه اتباعا للقاضى ، حتى جاءوا إلى منزل بشير الطباخ ، وأخبر بذلك ، فلما خرج القاضى وصحبه ، قال بشير لابنه هشيم : « يا بنى قد كنت أمنعك من طلب الحديث ، فاما اليوم فلا ، صار القاضى يجىء إلى بابى ! ! متى أملت أنا هذا » (١) .

(١) تاريخ بغداد حـ ١٤ ص ٨٧ .

انصرف هشيم بعد ذلك إلى طلب الحديث ، ورحل الرحلات المختلفة فى طلبه فرحل إلى مكة ، وفيها التقى بالزهرى،وأخذ منه نحوا من مائة حديث ، وقيل ثلاثمائة ، ورحل الى البصرة ، والى الكوفة ، والى غيرهما من الامصار طلبا للحديث ، وأخذا من رجاله ، واستمر على ذلك دائبا لا يني ، حتى صارله شأن فيه أى شأن ، ثم صارت له الرياسة فيه فى بغداد ، فكانت له حلقته ، وإن كان له منافسون مثل وكيع ، فقد نفس هذا عليه تلك المنزلة ، وجهد أن يسقطه ، بل أن يدلسه ولكن سمعته العلمية ، وأمانته كانت فوق هذا المنال ، وحسبك أن تعلم أن من رواته مثل مالك بن انس،ولقد قال فيه حماد بن زيد «ما رأيت فى المحدثين أنبل من هشيم ، وكان بعض المحدثين ذوى القدم الثابتة يفضله على إمام الحديث سفيان الثورى ، ولقد اثنى عليه مالك بن انس رضى الله عنه ونفى أن يكون بالعراق عالم بالحديث سواه ، فقال : « وهل بالعراق أحد يحسن أن يحدث إلا ذاك الواسطى (يعنى هشيما) »[1]

٩٩ — وإذا كان لهشيم هذه المنزلة فى الحديث ، وعند جمهور المحدثين فى عصره ، حتى يرضى مالك بالرواية عنه، فان احمد كان موفقا إذ اتجه اليه فى نشأته ، فقد جلس إلى إمام الحديث فى عصره ، والتزمه ، وقد كان كما قلنا ذا تأثير شديد فى نفس احمد رضى الله عنه ، حتى كان يحفظ كل ما يلقيه عليه حفظا ، فانه يروى أنه قال رضى الله عنه : « حفظت كل شىء سمعته من هشيم ، وهشيم حى ، قبل موته »

ولا شك أن هذه الحفظ ، وإن كان أساسه قوة الحافظة والعناية عند احمد ليدل أيضا على عظيم منزلة هشيم فى نفسه ، وانها كانت المنزلة العالية التى جعلته ينصرف بكل جهوده إلى الحديث ، والسنة والفقه .

١٠٠ — ويظهر أن احمد قد تلقى على هشيم حديثا كثيرا وفقها قليلا ، ولذلك كان لابد أن يسد ذلك النقص بشخصية أخرى ذات قوة تسد ذلك النقص ، وقد وجدت تلك الشخصية فى الشافعى رضى الله عنه،وقد اتصل به احمد عقب وفاة هشيم ، عند ماذهب يحج بيت الله الحرام ، فالتقى بالشافعى ، وأثار إعجابه ، وكان إعجابه بعقله الفقهى ، وقوة استنباطه ، والضوابط والمقاييس التى جعلها أصول الاستنباط ، فقد كان ذلك

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٩٢ .

اللقاء فى الزمن الذى كان فيه الشافعى يلقى دروسه بالمسجد الحرام ، وهو يفكر فى وضع أصول الاستنباط ، عقب أن عاد إلى مكة ، بعد مدارسة محمد بن الحسن فقه الرأى ببغداد ولقد صرح أحمد حين استمع اليه بأن إعجابه بعقله الفقهى ، لا بروايته ، وصرح بذلك لصاحبه اسحق بن راهوية ، فقد قال له كما نقلنا فى صدر حياته : « يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل ، فانه ما رأت عيناى مثله ».

فهو قد أعجب بعقل الشافعى ، وتفكيره الفقهى ، ولذا كان يقول فيه كما ذكرنا من قبل . « يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر عبد العزيز على رأس المائة ، وأرجو أن يكون الشافعى على رأس المائة ».

وإذا كان إعجابه منصبا على أخص ما امتاز به الشافعى ، وهو التفكير الفقهى ، والضبط العقلى ، ووضع أصول الاستنباط ، فهو يعد الموجه الثانى لاحمد بن حنبل رضى الله عنه وجهه هشيم فى صدر حياته إلى الحديث ، وطلب السنة ، واستخرج الفقه من بين ثناياها على أن تكون هى المقصد الاسمى ، ووجهه الشافعى إلى أصول الاستنباط ، فتوجه احمد الى الينبوعين ، وإن كان طلب السنة أغلب ، والعمل الفقهى أقل بالاضافة إلى الأول ، وإن لم يكن هو فى ذاته قدرا قليلا ، بل كان حظا كبيرا .

١٠١ لم يكن اختصاصنا بالذكر لهذين الشيخين الجليلين من شيوخ أحمد ليغض من قدر ما تلقاه من غيرهما ، فانه قد تلقى عن غيرهم الكثير من السنن والآثار ، وكان يرحل إلى بعضهم الرحلات المختلفة ، وكل له فضل فى القدر الذى وصل اليه أحمد من العلم ، وإن كانت المقادير متفاوتة متنوعة الاسناد والروايات ، وإنما خصصنا هذين الامامين بالذكر ، لأنا نحسب أن لهما فضل التوجيه ، لا فضل التكوين ، وانما التكوين كان فى حرصه على التلقى ، ومقدار ما تلقى ، ونوعه ، وقد تلقى كثيرا ، وعن كثيرين لا يحصيهم العدد ، وقد شرحنا فى اثناء سرد حياته كيف كانت هجرته فى طلب العلم ، ومن هاجر اليهم ، وفيما ذكرنا هناك مايغنى عن الذكر هنا

٣ — دراسات أحمد الخاصة

١٠٢ — وإذا كنا قد قصرنا عدد الموجهين لأحمد على اثنين من العلماء ، فذلك لأن أحمد كان موجهه الاكبر من نفسه ، ونزوعه ، وميولها، ونمتها الدراسات الشخصية المختلفة ، ونوع الحياة الذى اختاره ، واكتفاؤه من المال بالقليل ، وعدم اتجاهه إلى مطامح مما تطمح اليه نفوس الرجال ، وترنو اليه أنظارهم ، فكانت حياته كلها للحديث وفقه السنة .

لقد طلب الحديث والسنة ، وكان كلما أوغل فى الطلب اشتدت الرغبة ، كمن يذوق طعاما فيستطيبه ، إذ الرغبة بعد الذوق تشتد ، بيد أن نهمة العلم لاتشبعها كثرة ، ونهمة الطعام يشبعها القليل ، لأن الأولى معنوية ، والمعانى لاتتخم ، والثانية مادية ، وقليل المادة يتخم .

ولقد كان أحمد يجهد فى دراساته متنقلا بين الأمصار ، وقد ذكرنا فى صدر حياته كيف كان كثير الانتقال الى الامصار ، والجوب فى القفار، ومحبرته فى رحاله ، وهو يقول بلسان المقال كما يقول بلسان الحال : « مع المحبرة الى المقبرة »، ولا يمتنع — وهو الكهل الذى يعده الناس إماما على أن يعمل فى طلب العلم مايعمله الشباب الذى يستقبل العلم ، وكان يقول ، وهو الامام الحجة المقتدى به : أنا أطلب العلم الى القبر .

١٠٣ — والسؤال الذى يجول بالنفس ، أكان أحمد فى هذا الجهاد العلمى، وفى هذه الأخلاق، ليس له مثال سابق يسلك سبيله ؟ لاشك أن نزوع احمد فى صدر حياته ، وتوجيه شيخه هشيم ، ثم توجيه الشافعى ، وغيره كسفيان بن عيينة امام الحديث فى مكة وعبد الرازق إمام الحديث فى اليمن ، لاشك أن هذا كله مع تذوقه للسنة وفقهها كان من أشد المرغبات له ، ولكن العالم فى بحوثه ، والتقى فى ورعه ، والصابر فى بلائه ، لابد أن يكون له رجل من الماضين اتخذ مثل منهاجه ، وبينهما من المشاكلة النفسية مايجعل منهاجه يسرى الى نفسه ، ويجرى منها مجرى الدم فى العروق .

وليس من الصعب أن نعثر على بعض تلك الشخصيات الاسلامية التى كانت بينها وبين أحمد مشاكلة نفسية جعلته يسلك مسالكهم ، وربما كان مداه فى سلوكه

أوسع من مداهم ، وإن تلك المشاكاة جعلتهم قريبين من نفسه ، فتتبع مروياتهم ، وكان بها عليما .

فلقد وجدنا فى تراجمه أن عبد الرحمن بن مهدى كان يقول عن أحمد رضى الله عنه « هذا أعلم الناس بحديث سفيان الثورى »، (١) ثم وجدنا ابراهيم بن اسحاق الحربى يجعل بعد الصحابة سلسلة من التابعين وتابعيهم حفظوا السنة ، فقال فى هذه السلسلة : «سعيد ابن المسيب فى زمانه ، وسفيان الثورى فى زمانه ، واحمد بن حنبل فى زمانه»، (٢) فسفيان يعد وسط السلسلة وأحمد نهايتها ، وإن أحمد لم يلتق بسفيان ، ولم يتلق عنه مباشرة بل تلقى علمه عن طريق تلاميذه ، وعلم رواياته عن طريق من أخذوها عنه ، ولكن المشاكاة النفسية بينهما قرنتهما فى سلسلة واحدة .

وهناك شخصية أخرى تتقارب وتتشابه مع أحمد . وهى شخصية عبدالله بن المبارك رضى الله عنه ، فلقد قال فى ذلك احمد بن الحسن الترمذى : « ماشبهت احمد بن حنبل الا بابن المبارك فى سمته وهيئته » (٣)

١٠٤ — واذا كان الرواة المعاصرون الذين عاصروا الرجال الثلاثة قد عقدوا تلك الصلة الرابطة بين أحمد وهذين الامامين الجليلين ، وأحمد قد أدرك عصرهما ، فقد مات ثانيهما ، وهو يافع قد أخذ أهبته لطلب الحديث ، ونال منه بعضا فى مجلس هشيم وأخبار العلية من العلماء تصل إلى الشباب من الطلاب ، وتودع نفوسهم مجملة بخيال رائع يثير تفكيرهم ، وتجعلهم يسعون اليهم ، ورب شاب جذبه إلى علم معين سمعة العالم فيه ، وما يثيره خيال الشباب نحوها .

ولقد وجدنا أحمد عند ما ابتدأ يدرس تتطلع نفسه إلى لقاء ثانى الأمامين ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يتمكن من لقائه ، ولذلك جاء فى المناقب لابن الجوزى أن أحمد بن حنبل قال : « طلبت العلم ، وأنا ابن ست عشرة سنة ، وأول سماعى من هشيم ، سنة تسع وسبعين ومائة ، وكان ابن المبارك قدم فى هذه السنة . وهى آخر قدمة

---

(١) الحلية حـ ٩ ص ١٦٤ .

(٢) الحلية ص ١٦٦ .

(٣) ص ٦٦ من مقدمة المسند طبع المعارف .

قدمها ، وذهبت إلى مجلسه ، فقالوا : قد خرج إلى طرسوس، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة»(١)

١٠٥ — ولذلك وجب علينا أن نلم المامة موجزة بحياة هذين الامامين لنعرف وجه المشاكلة بينهما وبين أحمد ، وأن أحمد اتخذهما استاذين له من سيرتهما ، ومروياتهما ، وكان يتلاقى معهما فى أكثر ما اختط لنفسه من سلوك فى هذه الحياة .

أما أولهما فهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، وهو فقيه محدث كان بالكوفة ، وعاصر أبا حنيفة ، وكان الفقه يغلب على أبى حنيفة بأقيسته واستحسانه، والحديث والسنة يغلبان على سفيان باتباعه واقتدائه. ووقوفه عند المنقول لا يعدوه، وقد اشترك مع أبى حنيفة فى مجافاة ذوى السلطان ، والابتعاد عن تولى القضاء، وإذا كان لأبى حنيفة بعض التشيع على نحو ما بينا فى حياته ، فقد كان سفيان خاليا من ذلك تماما على محبة لعلى، ولكن وضعه فى منزلته من الزمان ، ولقد عرف عنه أنه كان فى الشام يذكر مناقب على ، حيث لا شيعة له وفى العراق يذكر عثمان ، حيث لا ناصر له ، ويذكر مناقب عمر وأبى بكر بالكوفة ، ويذكر مناقب على عند الناصبية الذين ناصبوه العداء هو وذريته رضى الله عنهم .

ولقد وجدنا سفيان يعيش من ميراث له آل إليه من عم له كان يقيم ببخارى ، فناله حلالا ، عف به عن طلب المال فى ذلة ، وعن قبول هدايا الخلفاء جملة ، ولعل أحمد كان يحاكيه فى الاكتفاء بأكل غلات ماله الموروث ، وإن كان ماورثه أحمد قليلا ، وماورثه سفيان لم يكن قليلا ، بل كان كثيرا فيما يبدو من مجموع أخباره .

ولقد كان غليظ القول مع الخلفاء ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، التقى بأبى جعفر المنصور فى المسجد الحرام، فأخذ أبو جعفر بتلبابه، وواجه الكعبة ، وقال له برب هذه البنية ، أى رجل رأيتنى ؟ فقال : برب هذه البنية بئس الرجل رأيتك .

ولقد طلبه للقضاء فتحامق ، حتى لا يوليه لحمقه ، ثم فر هاربا ، واستمر فى هروبه ، حتى تولى المهدى ، ولم تكن حاله معه خيرا من حاله مع أبيه ، كان يفاجئه بكلمة الحق المرة، فى وقت قد استساغ فيه كلمات الثناء واستمرأها ، لقيه فى الحج ، فقال له :

---

(١) المناقب ص ٢٠ .

« حج عمر بن الخطاب فأنفق فى حجته ستة عشر دينارا ، وأنت حججت ، فأنفقت فى حجتك بيوت المال ».(١)

ولقد غضب عليه المهدى ، كما غضب أبوه من قبل ، ففر هاربا من وجهه ، حتى مات غريبا رحمه الله ، ورضى عنه ، ومات سنة ١٦١ ، فقد مات قبل أن يولد أحمد رضى الله عنه بثلاث سنوات ، ولكنه كان استاذه بسيرته ، وحديثه ، كما علمنا ، وإن خلال أحمد قد رأيناها فى سفيان قبله ، فرأينا سفيان ينتقل فى طلب الحديث بين العراق والشام والحجاز واليمن ، حتى يقول له القائل . « إن للسباع مأوى تأوى إليها ، وأنت لا مأوى لك »

وكان يؤثر الخمول والعزلة على الشهرة ، كما رأينا أحمد من بعده ، وهو يؤثر الابتعاد عن الخلفـــاء على القرب منهم ، وإن رسالته إلى بعض أصحابه ناطقة بهذا ، وها هى ذى :

« إنك فى زمان كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه ، ولهم من القدم ماليس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، وفساد من الناس ، وكدر من الدنيا ، فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فإن هذا زمن خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذاك ، والنجاة فى تركهم ، فيما نرى . وإياك والأمراء أن تدنو منهم ، وتخالطهم فى شىء من الأشياء ، وإياك أن تخدع ، فيقال لك : تشفع ، وتدرأ عن مظلوم . أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلما ، وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل ، والعالم الفاجر ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ، ومالقيت من المسألة والفتيا ، فاغتنم ذلك ، ولا تنافسهم فيه ، وإياك أن تكون كمن يحب أن يعمل بقوله ، أو ينشر قوله ، أو يسمع من قوله ، فإذا ترك منه ذاك عرف فيه ، وإياك وحب الرياسة ، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ». (٢)

---

(١) تاريخ بغداد حـ ٩ ص ١٦٠.

(٢) حلية الاولياء حـ ٦ ص ٣٧٧.

وهكذا ترى سفيان يدعو إلى الخمول والعزلة، وترك الرياسة، وهذا ما أخذ أحمد به نفسه، وكأنه كان يجيب دعوة ذلك الامام الجليل .

ولقد علمت أن أحمد كان كثير الصمت لا يمزح قط ، وكأنه فى هذا كان يجيب دعوة سفيان ، إذ يقول : « تعلموا العلم ، فاذا علمتموه ، فاكظموا عليه ، ولا تخلطوه بضحك ، ولا لعب ، فتمجه القلوب »[١].

وهكذا نرى أخلاق أحمد وسمته ، وسلوكه، هى أخلاق ذلك الامام الجليل ، ولذلك نعده من أساتذته ، مع تباعد الزمان وعدم اللقاء ، فأحمد لم يكن حافظا لحديثه فقط ، بل اتخذ منه استاذا وإماما ، ولذلك كان يقول رضى الله عنه عن سفيان: « لا يتقدمه فى قلبي أحد »، ويصفه وحده بالامام ، فيقول لبعض أصحابه: « أتدرى من الأمام ؟ الأمام هو سفيان الثورى »[٢]

وهذا صريح فى أنه قد اتخذ من علمه ومن سيرته أستاذا له ، وإماما يقتفى طريقه، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، والائتلاف قد يكون من غير تلاق ، وقد يغنى الكتاب عن الخطاب .

١٠٦ — هذا هو سفيان الثورى الذى لم يلقه أحمد ، وتتلمذ له .

أما الثانى وهو عبد الله بن المبارك ، فقد حاول أن يلقاه ولكنه مات سنة ١٨١ قبل أن يتمكن أحمد من التلقى عليه ، وقد سلك هو الآخر مسلك سفيان الثورى، واتبع طريقه وكان أشد الناس استمساكا بمناهجه ، ونزوعه إلى الورع .

وابن المبارك هذا الذى رغب أحمد فى لقائه مسالكه هى مسالك أحمد فى الورع والأخلاق ، والابتعاد عن السلطان والجاه ، ولكنه كان كثير المال ، موفور الرزق راغد العيش ، وكثير العطاء والنفقة ، فاذا رأينا اخلاق أحمد كاملة ، ورأينا فيها قدرة الفقير الصابر ، فابن المبارك كانت فيه هذه الاخلاق ، ولكن معها حمد الغنى الشاكر، وكلاهما كان الفقير يعتز فى مجلسه، ولا يكون أعز منه فى هذا المجلس، فالنفسان متشاكلتان متشابهتان فى المعدن والجوهر ، وإن اختلفا فى الغنى والفقر، والمظهر

---

(١) الحلية جـ ٦ ص ٣٦٨.

(٢) تاريخ ابن كثير الجزء العاشر ص ١٣٤ .

وكان ابن المبارك يجمع إلى جلال العلم ، فضل المجاهد الغازى ، فهو العالم الذى استبحر من الفقه والحديث ، وهو المجاهد الذى غزا ، ونشر الاسلام . وكان كثير الحج ، وحيثما سار أدر الدر الوفير ، وكان يؤثر على نفسه ذا الحاجة .

ويروى فى ذلك أن أنه مر وهو فى طريقه الى الحج بمزبلة قوم ، فرأى فتاة تأخذ طائرا ميتا ، وتلفه ، فسألها عن أمرها ، فقالت : أنا وأخى هنا ليس لنا شىء إلا هذا الازار ، وليس لنا قوت إلا مايلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام وكان أبونا له مال ، فظلم ، وأخذ ماله ، وقتل . فأمر ابن المبارك برد الاحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار فقال : عد منها عشرين تكفينا إلى مرو وأعطها الباقى ، فهذا أفضل من حجنا هذا العام ، ثم رجع »[1] .

وكان رحمه الله يطعم الطعام الامثل الجيد ، وهو صائم ، ويكتفى من الدنيا بالقليل فكان ماله للفقراء ، ويعين به المحتاجين من طلاب العلم ، كانت غلته مائة ألف عام فكان ينفقها كلها على العباد ، وأهل العلم ، وأهل الفاقة ، وربما امتدت يده إلى رأس المال ، وهو فوق هذا لايترف نفسه ، حتى لايبطر معيشته ، فيفسد دينه ، ولقد عده كثيرون من العلماء إمام الورع ، والحديث ، والفقه الذى خلف سفيان الثورى ، فقد سئل المعتمر بن سليمان : من فقيه العرب؟ فقال . سفيان الثورى ، ثم سئل من فقيه العرب بعد سفيان ؟ قال عبد الله بن مبارك .

وكانت عنايته بعلم الآثار والسنن بالغة ، فقد كان يقضى الليل فى الاطلاع عليها ، وقد قيل له : إذا صليت لم لاتجلس معنا ؟ قال أذهب مع الصحابة والتابعين ، فقيل له ، ومن أين الصحابة والتابعون ، قال : اذهب ، فانظر فى علمى ، فأدرك آثارهم وأعمالهم ، فما أصنع معكم !! أنتم تغتابون الناس » .

وكان وهو الرجل الذى رزقه الله رزقا حسنا ، يحذر الناس من حب الدنيا ، ويقول : حب الدنيا فى القلب ، والذنوب احتوشته ، فمتى يصل الخير إليه !! »

ويرى أن الزهد سلطان دونه سلطان الملوك ؛ لأن الزاهد لايحتاج إلا إلى الله ،

---

(١) تاريخ ابن كثير .

والملوك لا يستغنون عن الناس ، ولذلك سئل من الناس ؟ فقال العلماء ، ومن الملوك ؟ فقال الزهاد ، ومن السفلة ؟ فقال الذين يعيشون بدينهم (١) .

هذا هو ابن المبارك الذى حاول أحمد لقاءه ، والأخذ عنه ، فلم تواته الاحوال ولم تمكنه السن ، وهذا الذى كان يشبه به أحمد ، كما بينا فى صدر كلامنا ، وقد رأيت أن أحمد قد وجد فيه السجايا التى اشتهر بها أحمد من بعده ، فالجود والزهد ، والعيش بالقليل ، والابتعاد عن الملوك ، وعدم جعل الدين سبيلا للرزق ، وعدم الدنية فى الدين ، كل هذه كانت فى أحمد بمنزلة السجايا ، وهى فى ابن المبارك كذلك ، فهو أستاذه وإن لم يلقه .

١٠٧ — ونحن إذ نذكر هؤلاء الذين لم يلقهم ، لا نغمط حق الذين التقى بهم ، لأنهم كانوا من الزهادة والورع والعناية بالسنة ، والابتعاد عن البدع ، ما جعلهم أسوة لأحمد وقد سنوا له الطريق ، وهم نقلة علم أولئك الذين غابو عنه ، ولم يرهم ، ولم يلتق بهم ، فسفيان بن عيينة ، وأبو بكر بن عياش ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الرحمن بن مهدى ويحيى بن سعيد القطان ، وغير كثير ، كل هؤلاء كانوا أساتذة لأحمد ، وكان لهم فضل من الورع والتقى ، وكل أنار له السبيل .

ولكن ذكرنا سفيان الثورى ، وصاحبه ، لأن الامام أحمد قد كان يشبه فى أخلاقه بهما ، ولأنه كان كما تدل أقواله وسيرته ، وروايته يميل كل الميل اليهما ، فلا بد أنه اتخذ منهما مثالا عاليا ، استقام على منهاجه ، وبينه وبينهما من المشاكلة النفسية ، ما تجعل علمهما وخلقهما يسريان اليه ، والتأثر بالمثل العالية ، لا يقل عن التأثر بالموقف ، يزيد ، لأنه يوجد الميل والنزوع ، والاتجاه دائما .

---

(١) الحلية جـ ٨ ص ١٩٦ .

٤ — عصر أحمد وتأثيره فيه

١٠٨ كانت حياة أحمد رضى الله عنه فى العصر الذى نضجت فيه كل عناصر العصر العباسى، فقد نضج فيه كل شىء، وأتى أكله، وسواء أكان حلوا، أم كان مرا، وسواء أكان مريئا، أم كان وبيئا، فهو نضج الشىء بخواصه على أى حال كانت هذه الخواص.

فمن الناحية السياسية استقرت الأمور للدولة العباسية، ولم ينازعها منازع ذو قوة تحسب حسابها، فالخوارج قد فلت شوكتهم، ولم يعد لهم فى هذه الدولة شأن، والعلويون من بعد الرشيد لم تكن لهم قوة يصاولون بها بنى عمهم، وينازلون، فلم تخرج منهم خارجة لا يتغلب عليها بغير عناء.

ولكن إذا كانت الدولة قد استعصمت على الخارجين عليها من غيرها، سواء أكانوا من الأقربين لها، أم كانوا من غيرهم، فقد ابتدأ التنافس والتنازع بين أعضائها، وكانت ولاية العهد من مظاهر ذلك، إذ يحاول الخليفة أن ينقض عهد من سبقه، وكانت الفتنة بين الأمين والمأمون أولى هذه المظاهر، وقد انتهت بقتل الأمين، وغلبة المأمون، ولكنها نهاية لم تكن محمودة المغبة فى كل نواحيها، بل كانت سيئة المغبة فى أظهرها، ذلك أن المأمون انتصر بسيوف بنى فارس، إذ كانت المعركة بين الأمين والمأمون معركة بين الجيش الفارسى، والجيش العربى، فلما انهزم الأمين كان انهزامه هزيمة للعرب، لم تعد لهم كلمة فى الحكم العباسى.

١٠٩ — وقد استقرت الأمور استقرارا تاما بعد ذلك. فانصرف المأمون إلى الجهاد ومن بعده المعتصم والواثق، وصار للدولة الاسلامية قوة مرهوبة، ولكنها فى ذات نفسها تحمل عوامل ضعفها، فإن أولئك الخلفاء اعتمدوا فى سلطانهم على الأعاجم، فاعتمد المأمون أولا على الفرس، واعتمد المعتصم من بعده على الترك، فاصطنع منهم قوته، واتخذهم عدته فى الحروب، ثم كانوا من بعد ذلك عوامل الضعف فى الدولة، فقتلوا الخلفاء، واستباحوا حماهم، واستبدوا بالأمر دونهم، بل استبدوا بهم استبدادا شديدا، وهتكوا كل حريجة دينية كانت تحصنهم أو تحميهم، فانقسمت الدولة الاسلامية من بعد ذلك دولا، وتوزعت أوزاعا، ولم تجمعها جامعة سياسية من بعد.

١١٠ وإذا كانت هذه مظاهر السياسة ، ونضجها فى الغاية التى تأدت اليها ، وابتدأت بغرسها ، وانتهت بثمراته ، وقد أدرك أحمد بعضه ، وعاينه ، وهو العربى الشيبانى الذى كان جده من المجاهدين فى إنشاء هذه الدولة ، والذى كان أبوه محاربا ، ولكنه لم يعش حتى يرى ذل العرب ، فلم تكن تلك الحال هى التى ترضى أحمد ؛ ولم تكن مظاهر سخطه عليها حربا يعلنها ، فلم يكن من رجال السيف ، ولا تكوين طائفة يحرضها ، فلم يرتض أن يكون مقوضا لبنيان الدولة الاسلامية ؛ إذ أن كل تحريض على فتنة يفك من عرا الدولة عروة ، ولم تكن مظاهر غضبه نقدا لخلفائها وولاتها ، ولوما لمناصريها ومؤيديها ، فلم يكن من دأبه التجريح والتأنيب ، بل كانت مظاهر غضبه مما يتفق مع سمته وأدبه ، وهو ألا يتصل بها ، وأن ينصرف إلى العلم ، وأن يقطع نفسه عن السياسة ، وما ينبعث منها .

١١١ — وكان مسلك أحمد هذا وسطا بين مسلك إمامين سبقاه ، هما مالك رضى الله عنه والآخر أبو حنيفة ، فأبو حنيفة تقدهم فى درسه ، ونبط الناس عنهم فى بعض عبارات جاءت فى أثناء فتاويه ، وحرض الناس على معاونة الخارجين من بنى على فى بعض عبارات وردت أيضا فى فتاويه ، فهو لم يسكت عنهم ، ولم يعلن الخروج عليهم إعلانا صريحا ، ويدعو إلى ذلك فى عبارات يسوقها لذلك ، بل كان يلوم ، ويثبط ، ويحرض فى عبارات تجىء فى سياق كلامه ، وإن كانت تدل فى الجملة على أنه لا يرى الخروج عليهم بغيا ، ولا يشارك الخارجين فعلا ، ومالك كان لا يرى جواز الخروج ، ولا يحرض عليه ، ويوالى هؤلاء الولاة رجاء اصلاحهم ، وحملهم على رفع المظالم ، وأن يردهم عن اساءة لمحسن .

أما أحمد فقد كان بين ذلك قواما ، لم يدع الى فتنة ، ولم يحرض عليهم ، ولم يتعرض لهم تصريحا ، ولا تلويحا بقول فاقد ، ولم يوالهم مع ذلك ، ولم يقبل عطاء ، بل كان الزاهد فى مالهم الراغب عن عطائهم ؛ المنصرف للعلم انصرافا تاما .

١١٢ — ولقد قارن ذلك الغلب الفارسى ، أو بعبارة أدق قارن حكم المأمون أن صار الغلب فى النفوذ العلمى وفى الحكم لطائفة هى المعتزلة ، كان يرى أحمد مسلكها فى الاستدلال على العقائد انحرافا عن منهاج السلف الصالح ، وانصرافا عن السنة ، وما كان ذلك هو العلم المنشود ، أو الطلبة التى يتجه إليها طالب العلم والحقيقة ، وقد زاده ذلك

انصرافا عن الخلفاء والأمراء ، ولكنه لم يصمت بجوار مارآه بدعا من المعتزلة بل كان ينهى الناس عن مجالستهم ، والمجادلة معهم ، والأخذ بطريقتهم ، ويعد من يخوض معهم فى حديث قد أدلى بدلوه معهم ، وفتح على نفسه باب البدع ، تدخل عليه من غير حساب .

ولسنا نترك شأن المعتزلة مع احمد من غير أن نشير بكلمة تبين كيف تخالفت مناهجهم الفكرية ومناهج أحمد ، مما ترتب عليه ما كان بينه وبينهم من خلاف .

١١٣ — لقد كان وجود المعتزلة أمراً لابد منه فى العصر العباسى ؛ لأنه وجد فى هذا العصر زنادقة يعلنون آراء مفسدة للجماعة الاسلامية ، ويتناجون بينهم بأمور هادمة للاسلام ، ويدبرون الأمر كيداً لأهله ، وتهوينا لشأنه ، ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الاسلامى ، وإحياء الحكم الفارسى ، كما حدث من المقنع الخراسانى الذى خرج على الدولة العباسية فى عهد المهدى ، ولذلك جرد الخلفاء السيف للقضاء على الزنادقة ، وشجعوا العلماء الذين يردون أقوالهم الهادمة ، وقد تصدى لأولئك المعتزلة ونازلوهم بالحجج الدامغة . فقربهم الخلفاء منهم ، وأدنوا مجالسهم ، وفتحوا لهم باب قصورهم فى عهد المنصور ، وعهد المهدى ، ثم فى عهد المأمون والمعتصم والواثق كان منهم الوزراء ، والحجاب ، والكتاب ، بل كان المأمون يعد نفسه منهم ، فكان يلحن بحجتهم ، ويناقش على ضوء أصولهم ، وبذلك كان لهم فى عهده النفوذ العلى ، والادارة والسلطان .

ولقد كان تجرد هؤلاء المعتزلة للرد على الزنادقة والمجوس وغيرهم من التحموا معهم فى جدال ذودا عن الاسلام سببا فى أن أخذوا يسلكون فى الاستدلال للعقائد طرائق جديدة لم تكن مألوفة فى الاستدلال عند السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم هم فى هذا السبيل قد قبسوا من الفلسفة ما يرهفون به سلاحهم ، ثم هم كانوا مأخوذين بطرق خصومهم فى الهجوم والدفاع ، فسرت إليهم مسائل مما يخوض فيه أولئك الخصوم ثم تورطوا بعد ذلك فى إثارة مسائل فلسفية لم تكن مما يفكر فيه السلف الصالح . تكلموا فى إرادة الانسان وأفعاله وسلطان الله عليها ؛ وتكلموا فى صفات الله سبحانه وتعالى : أهى شىء غير الذات أم هى والذات شىء واحد ؟ تكلموا فى كل ذلك ، فأعرض الفقهاء مستنكرين عملهم .

١١٤ — ذلك كله قد رآه منهم الفقهاء والمحدثون ، وقد خالفوا به طريقة الصحابة والتابعين فى الاستدلال للعقائد ، وكان طبعيا ألا يلتقى هذان الفريقان اللذان يخدمان الدين الاسلامى ، لاختلاف عقليتهما ومنطق تفكيرهما ، فالفقهاء والمحدثون يتعرفون دينهم من الكتاب والسنة ، وعملهم العقلى فى فهم نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واستنباط الأحكام من عبارتهما أو إشارتهما ، أو الاجتهاد بالرأى إن لم يكن نص ، هذا أقصى ما يسيرون فيه . أما المعتزلة ، فيرون إثبات العقائد بالأقيسة العقلية ، وهم لذلك يستخدمون المنطق والبحوث الفلسفية .

ولقد كان مجرى الأمور يوجب أن يكون كل فيما خصص فيه ، هؤلاء لفهم نصوص الكتاب والسنة ، واستنباط قانون إسلامى منهما ، أو تحت ظلهما ، وأولئك لبيان العقيدة الاسلامية ، والذود عنها بالطرق التى تلزم الخصوم وتقطعهم ، ويستعان فى ذلك بكل ما يؤدى إلى الانتصار ، والفلج فى النزال .

ولكن المأمون ومن وليه فى الحكم إلى عصر المتوكل حاولوا أن يحملوا العلماء على بعض آراء المعتزلة فى مسألة خلق القرآن كما بينا فى موضعه من القول ، فكان الالتحام الشديد بين الفريقين ، وكان المعتزلة بسبب ذلك هم خصوم الفقهاء والمحدثين ، ولذلك نفر أحمد رضى الله عنه ، ووقع به الأذى الشديد على ما علمت .

١١٥ — ولنترك الكلام فى الدولة ، ومن ينتمى إليها من العلماء ، ومن أظلته بحمايتها ، ولنتجه إلى الكلام فى علم الفقه والحديث فى هذا العصر .

لقد قلنا إن ذلك هو عصر النضج فى كل شىء ، وفيه نضج الفقه ، واستقامت طرائقه ، والتقى العلماء ، وتدارسوا الفقه فلم يكن الفقه بصريا ، وكوفيا ، وشاميا ، وحجازيا ، بل صار الفقه كله إسلاميا . فقد كان التقاء العلماء ، والرحلات المختلفة ، سببا فى أن علم علماء كل مصر بما وصل إليه علماء سائر الأمصار ، وتدارسوا بينهم ما وصلت إليه جهود العلماء من التابعين وتابعيهم ، والتقى بذلك الفقه الحجازى بالفقه العراقى ، ووجدنا الشافعى جامعا فى كتبه بين ثمرات الجهود المختلفة لفقهاء الأمصار من عراقيين ، وشاميين ، وحجازيين .

ودونت المجموعة الفقهية لكل طائفة من المجتهدين ، فدون مالك موطأه ، ودون

تلاميذه من بعده مدونة الفقه المالكى الجامعة ، ودون أبو يوسف كتبا حاوية بعض فقهه ، ودون الامام محمد مجموعة شاملة للفقه العراقى ، ثم دون الشافعى ذلك المبسوط العظيم الذى كان صورة حية ناطقة بما كان عليه الفقه من حياة فى ذلك العصر الذى ازدهر ، ونضج كل شىء يتصل بالفقه والاستنباط ، وسمى ذلك المبسوط بالأم ، وسماه بعض المتقدمين المبسوط .

ولقد وجد أحمد تلك الثروة الفقهية العظيمة ، فقرأ الكثير منها ، وتلقى بعضها تلقيا ، فقد تلقى عن الشافعى فى رحلته الثانية التى أقام فيها ببغداد ، وكان قد دون رسالته ، ومبسوطه الذى رواه الزعفرانى ، وعلم ماجاء به ، ومن قبل قد طلع على كتب فقهاء العراق ، ويقول الرواة إنه أعرض عنها بعد أن قرأها ، وإنهم إن لم يقولوا هذا ، فإن مسلكه يخالفها ، ولا يتلاقى معها فى عامة أحواله ، اطلع أحمد على كل الثمرات الفقهية ، فتغذى منها عقله وفكره ، وسواء أكانت نتائجها فى نفسه متلاقية مع أصلها ، أم غير متلاقية ، فإنها كانت بعض ماقدم له من غذاء عقلى ، التقى بغيره من علوم السنة ، فتكون ذلك الفقه الذى غلب عليه الأثر ، حتى كادت فتاويه تسمى آثارا ولا تسمى فقها .

ولقد كان من أظهر مظاهر نضج الفقه فى ذلك العصر الذى عاش فيه الاتجاه فى الفقه إلى وضع الكليات ، وضبط أساليب الاستنباط ، وهو ماسمى من بعد أصول الفقه ، وقد تولى عبء ذلك الشافعى رضى الله عنه ، فقد ابتدأ يفكر فى الفقه تفكيرا كليا ، بعد أن كان مقصورا على الفتاوى ، والحلول الجزئية لها . ووضع فى ذلك رسالته التى حد بها وسائل الاستنباط ، وضوابطه ، وأقام الأدلة على صحة هذه المقاييس الضابطة وقد ذكرنا فى دراسة الشافعى رضى الله عنه أنه ابتدأ يصنع ذلك الصنيع عند ما أقام بمكة ، بعد أن اطلع على الفقه المالكى المدنى والفقه العراقى ، وأخذ يوازن بينهما موازنة الخبير الفاهم الذى يرد الفروع إلى أصولها ، وكل المسائل إلى عناصرها الأولى المشتركة بينها وبين غيرها ، وكان ذلك فيما بعد سنة ١٨٤ إلى عودته إلى بغداد حاملا ثمرات تفكيره ، وقد اتصل أحمد بالشافعى مرتين إحداهما بمكة فى هذه الاقامة بها ، والثانية ببغداد ، عند ما جاء ينشر ثمرات تفكيره بها .

وقد تلقى بهذا الالتقاء المتكرر ، والذى دام طويلا مدة إقامة الشافعى ببغداد أصول

الفقه التى استنبطها ذلك الامام الجليل ، وكان لها مكان فى تفكير أحمد ، واسترعت نظره ، وجعلته يعجب بعقل الشافعى ، ويقول لصاحبه: إن فاتك عقل هذا الفتى لا تدركه، وجعلته يلتزم الشافعى مدة إقامته ببغداد ، وقد قاربت أربع سنوات ، وقد ذكرنا فى دراستنا لشيوخه مقدار انتفاعه من الشافعى رضى الله عنه .

وعلى ذلك نقرر أن أحمد تلقى من عدة ثروات فقهية فى ذلك العصر الذى نضج فيه كل شىء واستوى على ساقه ـ العلم فى الدين وغيره ، وانتفع به ، وتغذى منه غذاء صالحا ، واستطاع أن يهضمه مع ما أمد به من عناصر علمية مختلفة تمثلت فى نفسه ، وكان منها ذلك المزيج العلمى، الذى كان سنة، وكان فقها .

١١٦ ـ وقد نضج فى عصر أحمد علم الحديث ، وذلك لأن دراسة السنة والآثار لم يتكامل نموها قبل عصر أحمد ، فقد كانت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة . ولكن لم توضع ضوابط لمعرفة صحيحها من غيره ، وتمييز الصادق من غير الصادق ، وهم عمر بن عبد العزيز بجمع السنة الصحيحة لينشرها بين الناس ، ولكنه مات قبل أن يتم ما هم به ، وسلك العلماء مسالك تدوين السنة، فجمع مالك موطأه ، وجمع مسند الشافعى ، وآثار أبى يوسف ، وآثار محمد ، وغيرهما من آثار فقهاء العراق ، ولكن إلى الآن لم توجد الصحاح الجامعة. فموطأ مالك رضى الله عنه، فيه الآثار التى صحت عند مالك ، وجملتها من آثار الصحابة الذين اتخذوا المدينة مقاما. وآثار العراقيين جل أسنادها ينتهى إلى الصحابة أو التابعين الذين اتخذوا العراق مقاما ، وكذلك الشاميون، حتى إذا جاء النصف الثانى من القرن الثانى كانت الهجرة ، والرحلات المختلفة فى طلب الحديث فكانت الرحلة إلى بلاد الحجاز، يستمعون فيها إلى حديث أهل الحجاز ، فيستمعون إلى سفيان بن عيينة فى مكة ، وإلى مالك فى المدينة ، وكانت الرحلة إلى البصرة ، وإلى الكوفة ، لتلقى الآثار الصحاح التى تنتهى إلى الصحابة والتابعين ، وكذلك كانت الرحلة الى اليمن ، وإلى الشام، لنقل الصحاح من الأحاديث التى أثرت عن الصحابة والتابعين الذين حلوا فى هذه البلاد المختلفة .

فى عصر أحمد كان الجمع بين أحاديث الأقطار المختلفة ، وطبيعة ذلك الجمع الأحاطة

بالأحاديث الواردة فى الأبواب الفقهية المختلفة ، ودراستها دراسة مقارنة فى إسنادها وفيما يستنبط منها ، والموازنة بينها من حيث القوة فى حال تعارضها ، وتعرف الناسخ من المنسوخ ، وهكذا .

ولا شك أن الدراسة الفقهية عند محاجزة الأقاليم دون تبادل الروايات المختلفة دراسة لا تخلو من نقص كان يكملها القياس ، والاستنباط ، أما بعد أن تلاقت المرويات المختلفة ، فهى دراسة صحيحة كاملة لفقه الحديث ، وما يستنبط منه .

ولقد جاء أحمد فى ذلك الميدان ، فكان السابق ، وكان المجاهد ، وكان الحافظ ، ولعل مسنده أول جامع لأحاديث الأمصار ، حتى صار إماما ، كما توقع له أحمد ، ولذلك فضل بيان نرجئه إلى مقامه من البيان والشرح .

١١٧ — ولم يكن نضج السنة فقط فى الجمع بين أحاديث الأمصار ، بل كان فى الدراسة ، وقد ابتدأ مالك بفحص الرجال الذين يروى عنهم فحص الصيرفى الماهر للدراهم ، ثم بنقد الأحاديث بعرضها على الكتاب والمشهور من السنة ، وجاء الشافعى فدرس الأحاديث المتصلة ، والمرسلة ، والمنقطعة ، وقوة كل منها فى الاستدلال ، ومراتبها وما يقبل منها عند التعارض ، وما يرد ، ثم سادت فى العصر دراسة السند كاملا من الراوى إلى الرسول ﷺ ، ولم تكن العناية فى عصر أبى حنيفة ومالك وغيرهما ممن كانوا على قرب من التابعين إلا بمن يتلقون عنه ، فلا يهم مالكا إلا من ينقل إليه ، لأن كثيرين كانوا من التابعين ، ولذلك كانوا يقبلون المرسلات من الأحاديث ، لأن العبرة عندهم بمن نقل إليهم ، والعهد كان قريبا من التابعين ، ولكن لما بعد العهد ، وطال السند فى عصر الشافعى ، ومن جاء بعده ، عنى العلماء بدراسة السند من حيث علوه ، ونزوله ، ومن حيث اتصاله ، وانقطاعه ، وعنوا بدراسة كل رجال السند ، لأن الحاجة كانت شديدة ، لكى تعرف العدالة فى كل رجاله إلى أن يصلوا إلى عصر الصحابة رضوان الله سبحانه وتعالى عليهم ، لكى تطمئن النفس إلى الرواية ، ويكون المروى حجة فى العمل ملزمة

جاء أحمد فى ذلك العصر الذى نضجت فيه السنة ذلك النضج ، فأوفى فى دراسة السنة على الغاية ، وكان حريصا كل الحرص على طلب السند والعلة ، لا يأخذ الحديث

إذا كان راويه لا زال حيا يمكن أن يلاقيه ، بل يسافر إليه ما أمكنت الرحلة ، ويأخذ منه ما تنسب روايته إليه ؛ ولا يكتفي برواية الحاضر ما أمكن له أن يسافر إلى الغائب، وكان ذلك منه مبالغة فى الورع فى طلب الحديث والاستيثاق من صدقه .

هذه مظاهر نضج الدراسة لسنة النبي ﷺ فى عصر أحمد رضى الله عنه ، وقد أفاد من ذلك كثيرا ، وكانت الطرق ممهدة لهذه الدراسة ، وتعدد الرواة ، وكثروا، وتخصصوا فى فن الرواية ، وعكفوا ، وتميزت علوم الحديث عن الفقه ، فجاء أحمد ، وطلب الأحاديث والآثار من ينابيعها ، والعاكفين على دراستها ، كما طلب الفقه من رجاله ، ومن غلب عليهم ، فكان إماما فى الحديث والفقه .

١١٨ — وإذا كان ذلك العصر هو عصر التقاء الثمرات الفقهية فى كل الأمصار كما نوهنا الآن فإن ذلك الالتقاء يصحبه احتكاك فكرى بين العلماء ويثير مناظرات ، والاخلاص يمنع أن تكون مهاترات ، وذلك ما كان، فإن ذلك الالتقاء الفكرى ، قد صحبه مناظرات يقصد بها أحيانا الوصول إلى الحق، وأحيانا يقصد بها تغليب مذهب فكرى على مذهب آخر ، أو تغليب رأى على رأى آخر .

فهذا الشافعى يقيم ببغداد أمدا فى صدر حياته ، وفى أول قدمة قدمها ، فيدخل فى مناظرات قائمة بين فقهاء العراق ، وناصرى الفقه المدنى فى مسألة الشاهد واليمين، وذلك أن الفقه المدنى يجيز الحكم بشاهد واحد ،ويمين صاحب الحق ، إذا لم تكن لديه بينة كاملة ، ولا يلجأ إلى يمين المدعى عليه إلا إذا لم تكن شهادة قط ، ولو شهادة واحد ، وينتصر الشافعى فى الجدل فى نظر المناصرين للمدنيين ، فيسمى لذلك ناصر السنة .

وكانت تلك المجادلات تجرى أحيانا باللسان ، وأحيانا بالمكاتبة ، كرسالة مالك إلى الليث بن سعد ، ورد مالك عليه . وكانت هذه المجادلات الفقهية تجرى فى كل مكان فى مكة ، فى موسم الحج ، وفى الامصار الاسلامية فى بغداد والبصرة ، والكوفة ، ودمشق ، والفسطاط ، ومجالس الخلفاء والأمراء ، فحيثما سار الفقيه وجد من يناظره فى سبيل الوصول إلى حل فقهى فى مسألة يتفق مع الحق من الشرع الاسلامى ، أو يغالبه فى نصر فكرة أو رأى ، مغالبة لا يريد بها للحق علوا ، ولكن يبغى لنفسه علوا واستحواذا ، وسلطانا .

١١٩ — ولم يكن ذلك الجدل بين الفقهاء وحدهم ، بل كان بينهم ، وبين علماء الكلام من المعتزلة والجهمية والمرجئة وغيرهم ، وبين علماء الكلام بعضهم مع بعض ، كما كان يجرى بين المعتزلة والجبرية ، وبين علماء الكلام وغيرهم من المهاجمين للاسلام ، أو بينهم وبين الفلاسفة غير المسلمين الذين أقاموا بالديار الأسلامية ، كأولئك الذين انتحلوا نحلة السوفسطائيين ، كما جرى مثلا بين النظام ، وبعض هؤلاء الشكيين ، وبين النظام والمانوية ، وغيرهم .

وفى الجملة إن ذلك العصر كان عصر احتكاك فكرى بين نحل مختلفة ، وبين مذاهب عقلية مختلفة ، وبين آراء فقهية مختلفة ، ومن طبيعة الاحتكاك الفكرى أن تتولد عنه المناظرات التى يقصد بها الوصول إلى الحق فى القضايا المتنازعة ، والمجادلات التى يقصد بها الغلب العقلى والسلطان الفكرى (١) .

والنوعان كانا كثيرين فى هذا العصر ، فهناك جدل كان للغلب ، واحتياز المجالس وجدل كان لتحرى الحق .

---

(١) قد صور ابن قتيبة فى كتابه (اختلاف اللفظ) الجدل الذى كان يغلب على ذلك العصر فقال : «كان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويتفقه فى دين الله لينتفع وينفع ، وقد صار الآن يسمع ليجمع ، ويجمع ليذكر ، ويحفظ ليغالب ويفخر ، وكان المتناظرون فى الفقه يتناظرون فى الجليل من الواقع والمستعمل من الواضح ، وفيما ينوب الناس ، فينفع الله به القائل والسامع ، وقد صار اكثر التناظر فيما دق وخفى ، وفيما لا يقع وصار الغرض منه إخراج لطيفة ، وغوصا عن غريبة وردا على متقدم ، فهذا يرد على أبى حنيفة وهذا يرد على مالك ، والاخر على الشافعى بزخرف من القول ، ولطيف من الحيل ، كأنه لا يعلم أنه إذا رد على الاول صوابا عند الله بتمويهه ، فقد تقلد المأثم عن العاملين به دهرا الداهرين ، وهذا يطعن بالرأى على ماض من السلف ، وهو يرى ، وبالاتباع فى دين على اخر ، وهو يبتدع وكان المتناظرون فيما مضى تتباظرون فى معادلة الصبر والشكر ، وفى تفضيل أحدهما على الاخر وفى الوساوس والخطرات ، ومجاهدة النفس وقمع الهوى ، وقد صار المتناظرون يتناظرون فى الاستطاعة والتولد والطفرة ، والجزء والعرض والجوهر ، فهم دائبون يختبطون فى العشوات قد تشعبت بهم الطرق ، وقادهم الهوى بزمام الردى .

وكان اخر ما وقع من الاختلاف ، من الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين ، وبالاتباع قاهرين ، يداجون فى كل بلد ولا يداجون ، ويستترمنهم بالنحل ، ولا يستترون ، ويصدعون بحقهم ولا يستفشون ، ولا يرتفع بالعلم الا من رفعوا ، ولا يتضع فيه الا من وضعوا ولا تسير الركبان الا بذكر من ذكروا

وابن قتيبة توفى سنة ٢٧٦ فهو إذ يحكى هذا الجدل انما يذكر العصر الذى عاش فيه أحمد ، وما قاربه ، وفيه نرى أن الجدل قد ساد التفكير فى ذاك العصر

١٢٠ — ولعل أظهر بيان لروح العلم فى ذلك العصر، والاحتكاك الفكرى وثمراته الامام الشافعى ، فانه قد جاء حاملا لروح ذلك العصر ، حاكيا لمشاكله الفكرية فى الفقه والسنة ، ففيه بيان حال أولئك الذين كانوا ينكرون الاحتجاج بالسنة من بعض علماء البصرة ، وفيه حال أولئك الذين كانوا لايحتجون بخبر الآحاد ، ولا يقبلون من من السنة إلا ما كان متواترا ، أى خبر جماعة على حد تعبير الشافعى ، وقد كان رد الشافعى عليهم قوياً ، ومناقشته لهم حاسمة ، إذ ضيق عليهم السبل ، حتى أخذ الحق من أفواههم ، وفيه مناقشة لأولئك الذين يقدمون القياس على خبر الآحاد ، أو يردون بعض أخبار الآحاد ، لعام القرآن ، وفيه مناقشة الذين يقدمون بعض المأثور عن الصحابة على خبر الآحاد ، ونرى تلك المناقشات فى أبواب مختلفة ، من مثل كتاب اختلاف مالك ، وفقه العراقيين ، والرد على سير الأوزاعى ، وفيه بحث مستفيض لابطال الاستحسان ، ورد من يأخذ به ، وهو فى هذا يرد على المالكيين، والعراقيين، وغيرهم، ممن تجاوزوا فى الاستدلال الفقهى النص ، أو الحمل على النص .

وفى الجملة إننا لانجد كتابا يقرأ فيه القارىء الصور الفقهيه لعصر الاجتهاد ، وخصوصا الزمن الذى نشأ فيه أحمد بن حنبل، كـكتاب الأم ، فانه بسط الآراء المختلفة ما وافق عليه أقره ، وأيده بالأدلة القوية ،وما خالفه رده ونقده ، وبين وجه الزيف فيه عنده .

ولم يجىء الكتاب حاملا لروح العصر بمعانيه فقط ، بل جاء حاملا لهذه الروح فى شكله أيضا ، فقد جاء فى شكل مناظرات ، يحكيها ، أو يفرضها ، فهوى يحكى فى ذلك الكتاب ما كان يقوم بينه وبين غيره من مناظرات ،وأحيانا يفرض مجادلا يوجه إليه القول ، وتجرى بينهما المناظرة .

١٢١ — وإذا كان العصر عصر جدل ، واحتكاك فكرى، ونضج فى العلوم الدينية وقد وجد فيه من ينكر السنة ، ومن ينكر الاحتجاج بخبر الآحاد ، فماذا كان تأثير ذلك كله فى نفس أحمد رضى الله عنه ؟

إن تأثير العصور والبيئات فى نفوس مفكريها مختلف باختلاف اتجاه هؤلاء المفكرين ، وباختلاف مايستسيغونه من عناصر البيئة ، وان بيئة فكرية كالعصر

العباسى الذى عاش فيه أحمد يختلف تأثيرها إذ كان فيه أخلاط فكرية مختلفة ، فهؤلاء ينكرون الاحتجاج بخبر الآحاد ، وأولئك يقبلون خبر الآحاد ، ويقدمون عليه القياس، وأولئك يجعلون فتاوى الصحابة من السنة، ويوازنون بينها وبين أخبار الآحاد ، وأولئك يتشددون فى الاستمساك بالسنة ، ولا يقدمون أى دليل على ماتجىء به السنة ، ويخصصون بها عام القرآن، لأنها بيان له ، ومن البيان تخصيص العام ، وتقييد المطلق .

فاحمد قد أخذ من هذا الغذاء المختلف الألوان مايتفق مع نزوعه ، ويتلاءم مع مزاجه ، ومسلكه الذى وجه إليه منذ نشأته الأولى ، وهو الاتجاه إلى السنة، وتعرف فتاوى الصحابة وكبار التابعين، والتخرج على ذلك المأثور ، حتى إنه من فرط شغفه بمعرفة آثار الصحابة والتابعين عد من التابعين ، كما جاء على لسان بعض دارسيه ، لأنه لعنايته باتباع فتاوى الصحابة قد صار من تلاميذهم ، إذ قد تلقى عنهم بالخبر ، والآثار ، وإن فاتته المشاهدة والعيان .

وإذا كان الجدل قد ساد عند طائفة كبيرة من معاصريه ، فقد وجد فى هذا العصر أيضا من كان ينفر من الجدل ، لأنه يلقى الشكوك ، ويفسد الفكر ، فكان مالك ، وسفيان الثورى ، وابن المبارك وغيرهم يبغضون الجدل فى الدين ، ويرون أنه ليس من التدين القويم أن يجعل المؤمن دينه غرضا لسهام الجدل ، وهدفا للخصومات الفكرية ، وقد اختار أحمد رضى الله عنه ذلك المنزع ، فنفر من الجدل والمجادلين نفورا شديدا .

الفرق الاسلامية

١٢٢ — لقد جاء على لسان احمد رضى الله عنه أسماء بعض الفرق الاسلامية ، وناضلها ، فحق علينا أن نذكر كلمة معرفة تعريفا موجزا أشد الايجاز لهذه الفرق المختلفة ، حتى يكون القارىء على علم بمعانى الأسماء التى جاءت فى هذا ؛ فأنه فى هذا العصر كان يقوم المنتحلون لهذه الفرق بنشر أفكار بين المسلمين خالفوا فيها مناهج المحدثين والفقهاء ، وأزعجوا أولئك بحملهم عليهم بقوة السلطان ، كما ذكرنا عند الكلام فى مسألة خلق القرآن ، ومسألة رؤية الله يوم القيامة التى أراد الواثق أن يحمل الفقهاء والمحدثين على اعتقاد استحالتها ، كما هو مذهب المعتزلة .

وكان من حقنا أن نمر عليها مر الكرام ، لولا أن احمد كان على علم بها ، وابتلى ببعضها ، ولذلك حق علينا أن نشير هذه الاشارة ، لنستطيع عند الكلام فى آراء احمد فى أصول الاعتقاد أن نذكر رأى احمد فى موضوع الآراء الذى أثيرت حوله آراء هذه الفرق المختلفة .

والفرق التى يعرفها هى الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والجهمية ، والمرجئة .

١٢٣ — والشيعة يعدون أقدم الفرق الاسلامية ، ظهروا بمذهبهم فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ثم فى عصر على ، وكان ينمو عددهم من بعد ، كلما اشتد الظلم بالبيت الهاشمى ، من بنى أمية .

والشيعة فى جملتهم يرون أن على بن أبى طالب أحق المسلمين بخلافة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم فرق مختلفة ، بعضهم تجاوز حد الدين فى تقديس على رضى الله عنه ، وبعضهم مقتصد لم يتجاوز حد الدين ، ولم يكفر أحدا من الصحابة ، ولم يؤثمهم ، وأظهر هؤلاء المعتدلين الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على زين العابدين ، وقد كانوا يرون صحة إمامة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وجواز إمامة المفضول ، وجواز أن يكون هناك إمامان فى عصر واحد ، بحيث يكون كل واحد منهما إماما فى قطره ، وقد كان أولئك الزيدية يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ؛ لأنه فى منزلة بين

بين المؤمن ، والكافر ، كما هو رأى المعتزلة،وقد قتل زيد فى عصر هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

ومن الشيعة من لم يخرج عن الاسلام ، ولكن فى آرائهم غلو ، ومن هؤلاء الغلاة الكيسانية ، وهم أتباع المختار بن عبيد الثقفى الذى ظهر فى أول الدولة المروانية ، وكانوا يعتقدون أن الخليفة من أولاد على بعده — الحسن ، ثم الحسين،ثم محمد بن الحنفية ، وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح ، ويرون أن لكل شىء ظاهرا وباطنا ، وإن الامام اختص بعلم الباطن .

ومن الغلاة أيضا الأمامية الاثنا عشرية ، وهم الذين يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر غاب فى سر من رأى ، وأنهم ينتظرونه من قبل ، ولا زالوا ينتظرونه إلى اليوم . وهؤلاء يعتقدون أن الامام منصوص عليه بالاسم دون الوصف، كما يقول الزيدية ، ويعتبرون الأئمة بعد الحسين ، محمدا الباقر ،ثم جعفرا ، وهكذا، حتى الثانى عشر الذى غاب ، وينتظر ، ومنهم اليوم سكان فارس .

ومنهم الامامية الاسماعيلية ، وهم يرون كالاثنا عشرية أن الامام بعد النبى صلى الله عليه وسلم معين بالاسم ، ويعدون الأمام بعد محمد الباقر جعفرا كالاثنا عشرية ، ثم من بعد جعفر ابنه اسماعيل ، وهم يرون أن الامام يجوز أن يكون مكتوما ، ولذا سموا الباطنية ، وكان من هؤلاء من تولوا الحكم فى مصر ، وهم الدولة الفاطمية .

أما الذين خرجوا من الشيعة عن الاسلام بانحرافهم ، فمنهم السبئية أتباع عبد الله ابن سبأ ، فقد ألهوا عليا ، حتى حرق بعضهم .

ومنهم الغرابية ، وهم الذين زعموا أن النبوة كانت لعلى ، ولكن جبريل أخطأ ، ونزل على النبى صلى الله عليه وسلم ، لما بينه وبين على من شبه ، كشبه الغراب بالغراب .

١٢٤ — ومن الفرق السياسية الخوارج ، وقد ظهروا فى جيش على رضى الله عنه ، غب قبوله فكرة التحكيم بعد أن حملوه عليها ، إذ ثاروا بعد قبوله لها صائحين لا حكم إلا لله ، وزعموا أن عليا رضى الله عنه كفر بقبوله التحكيم ، وأن عليه أن يتركه ، وأن يتوب بعد هذا الكفر ، وقد بغوا عليه ، فقاتلهم ، حتى خضد شوكتهم ، ولكنهم شغلوه عن معاوية ، وكانوا سبب ضعفه .

ولما جاءت الدولة الأموية كانوا شوكة تقض مضاجعها ، وتوالى خروجهم .

وجملة آرائهم أنه لا يوجد بيت أولى من بيت بالخلافة ، وأن الخليفة يختار اختيارا حرا من المسلمين جميعا ، والأولى ألا يكون له عصبية ، حتى يسهل خلعه ، ويكفرون من يرتكب ذنبا .

وهم فرق مختلفة ، ويتفاوتون مغالاة واعتدالا فى أعمالهم وتفكيرهم ، وأشدهم غلوا الأزارقة ، وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وأقربهم إلى الجماعة الاسلامية الأباضية ، وهم أتباع عبد الله بن إباض ، وهم يرون أن مخالفيهم ليسوا كفارا ، ولا مشركين ، بل هم كفار نعمة ، وأن دماء مخالفيهم حرام ، وأنه تجوز شهادتهم ، ولا زالت بقية باقية من الأباضية بالمغرب .

وبين الأباضية والأزارقة فرق مختلفة ، منهم النجدات أتباع نجدة بن عويمر اليمى من قبيلة بنى حنيفة ، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر ، والعجاردة أتباع عبد الكريم ابن عجرد .

ومن الخوارج من خرجوا عن الاسلام ببعض آرائهم ، وهم فرقتان .

(إحداهما) اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة ، وقد زعم أن الله سيرسل رسولا من العجم ينزل عليه كتاب ينسخ الشريعة المحمدية .

(وثانيتهما) الميمونية أتباع ميمون العجردى . وقد أباح نكاح بنات بنات الابن ، وبنات أولاد الاخوة والأخوات ، لعدم ذكرهن فى المحرمات فى زعمه ، وروى عن هؤلاء الميمونية أنهم أنكروا سورة يوسف ، ولم يعدوها من القرآن .

١٢٥ — هذه إشارة موجز إلى الفرق السياسية ، أما الفرق الاعتقادية ، وهى الفرق التى أثارت مسائل تتصل بالاعتقاد ، فمنها .

المرجئة : وهى فرقة كانت تخلط بالسياسة أصول الدين ، ورأيها الذى امتازت به يقابل رأى الخوارج فى المسألة التى أثاروها ، وهى مسألة مرتكب الذنب ، أهو مخلد فى النار ! فقد قال المرجئة إنه لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة . ولقد كان المعتزلة يطلقون كلمة مرجيء على كل من لا يحكم بأن صاحب الكبيرة مخلد فى النار ،

ولذا قيل عن أبي حنيفة مرجيء ، وجعلة الشهرستاني من مرجئة السنة الذين يرجون عفو الله للمذنبين ، لا الذين يستبيحون المنكرات .

ومن الفرق الاعتقادية الجبرية أو الجهمية ، وهم الذين قالوا إن الانسان ليس له إرادة فيما يفعل ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل لكل مايجرى على يديه ، إن خيرا أو شرا ، وأنه فى أفعاله كالريشة يحركها الهواء ، وقد شاع القول بالجبر فى العصر الأموى وقيل: أول من جهر به الجهم بن صفوان ، ولذلك يسمون الجهمية ، والجهم كان من أول من قال إن القرآن مخلوق ، ولذلك يجيء على لسان احمد رمى القائلين هذا القول بأنهم جهمية ، وإن كان المعتزلة الذين يخالفون الجهم فى أفعال الانسان كل المخالفة يقولون هذا القول .

ومن الفرق الاعتقادية القدرية : وهم الذين يقولون إن الانسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية. ومنهم من سموا فى التاريخ الاسلامى باسم المعتزلة، وقد كان لهم شأن كبير فى الفكر الاسلامى فى عصر العباسيين ؛ إذ هم الذين تولوا الرد على الزنادقة ، وأهم مبادئهم خمسة، هى :

(١) التوحيد وفسروه بأن الله سبحانه وتعالى واحد فى ذاته ، وفى صفاته ، فلا يشاركه أحد من المخلوقين فى أى صفة ، ولذلك نفوا رؤية الله .

(٢) العدل من الله سبحانه وتعالى ، ولذلك اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يخلق الناس أفعالهم ؛ ليكون الثواب والعقاب ، والتكليف بوجه عام .

(٣) الوعد والوعيد بأن يجازى المحسن باحسانه ، ومن أساء يجزيه سوءا، فلا يغفر لمرتكب الكبيرة كبيرته .

(٤) أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المؤمن والكافر ، وقد يسمى مسلما فاسقا ولكن لا يسمى مؤمنا قط ، وهو مخلد فى النار .

(٥) الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فقد قرروا وجوبهما على المؤمنين ، نشراً للدعوة الاسلامية ، وهداية للضالين ، وكل بما يستطيع ، فذو السيف بسيفه . وذو اللسان بلسانه ، والله سبحانه وتعالى هو الهادى .